الحكاية

للكاتب الألماني الشهير غوته
ترجمة وتعليق الدكتور عبد الغفار مكاوي

على ضفة النهر العظيم ، الذي هطلت عليه منذ قليل امطار غزيرة ففاض الماء على شاطئيه ، رقد المراكبي العجوز في كوخه الصغير ، مضنى من عناء النهار ، واستسلم للنوم . في منتصف الليل ايقظتـه اصوات مرتفعة ، سمع مسافرين ينادون عليه يريدون ان يعبروا الى الشاطـىء الاخر . عندما دلف من باب الكوخ ، راى نورين عظيمين تائهين يرفـان فوق القارب الموثق ، اكدا له انهما في عجلة شديدة وانهما يريدان ان يكونا على الشاطىء الاخر في أسرع وقت ممكن . لـم يتردد العجوز ، فدفع قاربه وراح بمهارته المعهودة يشق به عرض النهر ، بينما طفـق المسافران الغريبان يوشوشان معا بلغة مجهولة سريعة الايقاع ، وينفجران من حين الى حين ضاحكين بصوت عال ، ويقفزان مرة على جدران القارب ومقاعده واخرى على ارضه .

هتف العجوز : « القارب يترنح ، واذا لم تسكنا الى الهدوء فقـد ينقلب في الماء ، اجلسا ايها النوران ! »

انفجرا ضاحكين بصوت عال من هذا المطلب الجريء ، واخـذا يسخران بالعجوز ، وزادت ضوضاؤهما عما قبل ، وتحمل « النوتـى » العجوز هذرهما صابرا ، وما هو الا قليل حتى رسا بقاربه على الشاطىء الاخـر .

« خذ هذا اجرا على تعبك » ! بهـذا ناداه المسافران ، ونفضـا انفسهما فسقطت قطع ذهبية عديدة لامعة على ارض القارب المبتلـة . « وهتف العجوز » .

« بحق السماء ، ماذا تصنعان ؟ انكما تصبان علي اعظم الشقاء . فلو ان قطعة ذهبية سقطت في الماء ، لارتفعت امواج النهر ، الـذي لا يطيق هذا المعدن ، ارتفاعا مفزعا ، فابتلعت السفينة وابتلعتني معهـا . ومن يدري عندئذ ماذا يمكن ان يقع لكما ! اعيدا نقودكما الى مكانها ! ».

فأجابه النوران التائهان قائلين : « لا نستطيع ان نـرد شيئـا نفضناه عن انفسنا . »

قال العجوز وهو ينحني ليجمع القطع الذهبية فـي قبعته : اذن فأذنا لي ان افتش عنها واحملها الى الشاطىء وادفنها هناك .

كان النوران التائهان قد قفزا من القارب وناداهما العجوز أ

ـ « أين اذن اجري ؟ »

هتف به النوران : « من لا يقبل ذهبا فليعمل بلا اجر » !

ـ لتعلما ان من الممكن دفع اجرتي من ثمار الارض .

ـ من ثمار الارض ؟ اننا نزدريها ولم نذق لها طعما .

ـ ومع ذلك فلا أستطيع ان اتركما حتى تعداني بان تحضرا لـي ثلاثة رؤوس قرنبيط ، وثلاث خرشوفات وثلاث بصلات كبيرة .

اراد النوران التائهان ان يتسللا في مرح مبتعدين ، غير انهما احسا وكأن شيئا مجهولا يقيدهما بالارض على نحو عجيب ، كان احساسا شديد الايلام لم يشعرا به من قبل . وعدا العجوز بان يحققا له طلبه فـي اقرب فرصة تسنح لهما ، فتركهما ودفع قاربه في اليم . كان قد ابتعد عنهما بمسافة كبيرة حين ناديا عليه : « ايها العجوز ! اسمع ، ايهـا العجوز ! لقد نسينا اهم شيء ! »

ولكنه كان قد ابتعد ولم يسمع شيئا . كان قد ترك قاربه ينحدر بحذاء ضفة النهر نفسها ، متجها الى ناحية جبلية لا يصل اليها المـاء ابدا ، اراد ان يدفن الذهب الخطر فيها .

وهناك بين الصخور العالية عثر على حفرة هائلة ، القى بالقطـع الذهبية فيها وقفل راجعا الى كوخه .

في هذه الحفرة كانت تسكن الحيـة الجميلة الخضراء التـي استيقظت من نومها على رنين القطع الذهبية ، لم تكد تقع عيناها علـى القطع البراقة ، حتى هجمت عليها فابتلعتها في نهم عظيـم ، وراحت تفتش بعناية عن كل قطعة تناثرت في الدغل او بين شقوق الصخور .

لم تكد القطع الذهبية تستقر في جوفها حتى شعرت شعورا لذيذا منعشا بالذهب يذوب في احشائها وينتشر في بقية جسدها ، ولاحظت والبهجة العظيمة تغمرها كيف انها اصبحت شفافة ولامعة . كانت قـد طالما سمعت من يؤكد لها ان هذه الظاهرة ممكنة الحدوث ، غير ان الشك كان يساورها فيما اذا كان هذا النور سيبقى على لمعانه ، فدفعها حـب الاستطلاع والرغبة في تأمين مستقبلها الى ان تخرج من الصخر ، لكـي تفتش عمن عساه ان يكون قد نثر الذهب الجميل في مسكنها ، لم تجـد احدا ، وزاد من نشوتها ان تعجب بنفسها وهي تزحف بـين الحشائش والاعشاب وان تزدهر بالنور الساحر الرقيق الذي ينتشر منها فيضيء العشب اليانع ـ بدت الاوراق كلها وكانها من زمرد ، والورود جميعـا ظهرت صافية في ابدع صوره . عبثا راحت تجوب البريـة الموحشة ، ومع ذلك فقد ازداد رجاؤها حين وصلت الى الارض المستوية وابصرت نورا شبيها بنورها يلمع من بعيد ، وهتفت صائحة وهي تتجه نحوه :

« ها انا اجد اخيرا من يشبهني ! » لم تكترث بالمشقة التي تعانيهـا من الزحف في المستنقع وبين اعواد الغاب الطويلة ، فمع انها كانـت تعشق الحياة فوق اعشاب الجبل ، وبين شقوق الصخور العالية ، علـى كل حياة سواها ، ومع انها كانت تستطيب طعم الاعشاب ذات التوابـل وتروي عطشها في العادة من قطرات الندى الرقيق ، ومن ماء النبـع المنعش ، فانها لم تكن لتتردد عن الاقدام على اية مهمة تلقى عليها مـن اجل الذهب الجميل ومن اجل النور الباهر .

انتهى بها المطاف وقد أضناها التعب الى مستنقع ، وكان النوران التائهان يلعبان فوقه جيئة وذهابا ، اندفعت بسرعة نحوهما ، وحيتهما ، واسعدها أن تجد امامها مثل هذين السيدين اللطيفين من اقاربها . اخذ النوران يرفان حولها مداعبين ، ويقفزان فوقها ، ويضحكان على طريقتهما. قـالا لهـا :

« يا عمة ، اذا كنت من اصحاب الخط الافقي ، فلا يعني هـذا شيئا على الاطلاق ، حقا ان قرابتنا من ناحية المظهر واحدة ، انظـري الينا ـ « وهنا ضخمت الشعلتان بعرضهما كله فمدا في طولهما وزادا من حدة اطرافهما بقدر طاقتهما ـ كم يناسبنا هذا الطول الرشيق ، نحـن السادة اصحاب الخط العمودي ! لا تعتبي علينا ايتهـا الصديقة ، ولا تظني بنا السوء ، ولكن أية اسرة يمكنها ان تتباهى مثلنا بذلك ؟ منذ ان

وجدت الانوار التائهة لم يجلس من بينها نور واحد ، ولم يخلد الى الرقاد » .

شعرت الحية بالضيق الشديد في حضور هؤلاء الاقرباء ، فكلما حاولت ان ترفع رأسها الى اقصى ما تريد احست بانها لا بد ان تعود فتحنيه الى الارض لكي تستطيع ان تتحرك من مكانها ، واذا كانت قد نعمت بالحياة وسعدت بها كل السعادة عندما كانت تعيش في الدغل المظلم ، فقد بدا لها أن بريقها يخفت في كل لحظة امام اولاد العم هؤلاء ، بل لقد خشيت ان ينطفىء في نهاية الامر انطفاء تاما .

وأسرعت في حيرتها هذه تسأل ان كان السادة يستطيعون ان يخبروها من اين جاء الذهب البراق الذي سقط منذ قليل في حفرة الصخر ، واضافت انها تخمن انه مطر ذهبي تساقط مباشرة من السماء. ضحك النوران التائهان ونفضا نفسيهما فتساقط مقدار عظيم من القطع الذهبية راح يقفز حولهما .

اسرعت الحية نحوها تريد ان تبتلعها فقال السيدان المهذبان :

ـ « لتهنئي بطعمها يا عمة ، في استطاعتنا أن نقدم لك المزيد »

وعاد النوران التائهان ينفضان نفسيهما مرات متوالية وبسرعة خاطفة ، حتى كاد يتعذر على الحية ان تزدرد الطعام الثمين بنفس السرعة . بدأ نورها ينمو نموا ملحوظا ، فلمعت لمانا باهرا حقا ، بينما ذبل النوران التائهان ، وتضاءل بريقهما ، بغير أن يفقدا شيئا ولو قليلا من مرحهما واعتدال مزاجهما .

« سأظل ممتنة لكما الى الابد » قالت الحية هذه الكلمات بعد ان استعادت انفاسها اثر الاكلة الشهية واستطردت تقول : أطلبا مني ما تشاءان ! كل ما املكه اريد ان اقدمه لكما . » هتف النوران التائهان :

حسن جدا ! ، قولي ، اين تسكن الزنبقة الحسناء ؟ سيري بنا بأسرع ما يمكن الى قصر الزنبقة الحسناء وحديقتها . أن اشتياقنا الى أن نلقي بانفسنا عند اقدامها يكاد يهلكنا .

اجابت الحية بتنهدة عميقة : لست استطيع ان اقدم لكما هذه الخدمة في الحال . ان الزنبقة الحسناء تسكن على الجانب الاخر من الماء .

ـ على الجانب الاخر من الماء ؟ وندع العجوز يعبر بنا النهر في هذه الليلة العاصفة ؟

ما افظع النهر الذي يفرق الان بيننا ! اما من وسيلة لننادي بها العجوز من جديد ؟

ردت الحية قائلة : سوف تضيعان جهدكما سدى ، اذ انكما ولو قابلتماه على هذه الضفة ، فلن يأخذكما معه ، لقد سمح له ان ينقل كل احد الى هذا الشاطىء ، ولكن حرم عليه أن ينقل احدا الى الشاطىء الاخر .

ـ اذن فقد حبسنا انفسنا بايدينا ! اما من وسيلة نعبر بها الماء ؟

ـ بل هناك وسائل كثيرة ، ولكن ليس في هذه اللحظة . انا نفسي استطيع ان انقل السادة الى الضفة الاخرى ، ولكنني لن اقدر على ذلك قبل حلول ساعة الظهيرة .

ـ هذا وقت لا نميل الى السفر فيه .

ـ اذن ففي استطاعتكما اذا حل المساء ان تعبرا النهر فوق ظل العملاق » .

ـ كيف ذلك ؟

ـ ان العملاق العظيم ، الذي يسكن غير بعيد من هنا ، لا يقدر بجسده على شيء ، ان يديه لا تستطيعان ان ترفعا عود قش ، وكتفاه لا يقويان على حمل حزمة أرز ، ولكن ظله يستطيع ان يفعل الكثير ، بل يستطيع ان يفعل كل شيء . لذلك كان اشد ما يكون قوة عند شروق الشمس وغروبها ، وما على الانسان ، اذا حل المساء ، الا ان يجلس على رقبة ظله . وما هو الا ان يتجه العملاق في رفق ناحية الشاطىء ، وبذلك ينقل الظل المسافر الى الضفة الاخرى . اما اذا اردتما ان تحضرا في وقت الظهيرة عند ذلك الجانب من الغابة حيث يلتحم الدغل بالشاطىء ، فانني استطيع عندئذ ان انقلكما الى الشاطىء الاخر وان اقدمكما الى الزنبقة الحسناء ، اما اذا كنتما تشفقان على انفسكما من وهج الظهيرة، فما عليكما الا ان تزورا العملاق في ذلك الخليج الصخري عندما يقترب المساء ، ولا شك انه سيحسن ضيافتكما . »

وبانحناء طفيف ابتعد السيدان الشابان ، وسر الحية ان تتخلص منهما ، لكي يتاح لها من ناحية ان تبتهج بنورها ، وتشبع من ناحية اخرى رغبة عذبتها منذ امد طويل عذابا غريبا .

كانت قد اكتشفت اكتشافا عجيبا في موضع من الحفر الصخرية التي أعتادت من حين لاخر ان تزحف نحوها . فعلى الرغم من انها كانت تضطر الى الزحف خلال هذه الحفر بغير نور يهديها ، فقد كان في استطاعتها ان تميز باحساسها بين الاشياء التي تقابلها ـ كان من عادتها الا تجد حيثما ذهبت غير منتجات طبيعية غير منتظمة ، فحينا تتلوى لتنفذ بين اطراف بلورات عظيمة مدببة ، وحينا تشعر بزوايا الفضة المترامية وشعراتها فتأخذ معها هذا الحجر الثمين او ذاك الى النور . بيد انها كانت قد احست والدهشة العظيمة تستولي عليها في موضع صخري مغلق من كل ناحية باشياء تشي بيد لانسان المصورة ، جدران ملساء ، لا تستطيع أن تتسلق عليها ، حواف حادة منتظمة ، أعمدة بديعة الصنع ، واشكال بشرية اثارت فيها اشد العجب ، لفت جسدها مرارا حولها واعتقدت انها من نحاس او مرمر مصقول بديع الصقل .

اشتهت أن تستجمع كل هذه التجارب مرة اخرى بحاسة العين فتتأكد مما لم يتيسر لها أن تعرفه الا بالتخمين . أعتقدت انها تستطيع الان بالضوء الذي يشع منها ان تنير هذا القبو السفلي العجيب ، وداعبها الامل المفاجيء في أن تتعرف على هذه الاشياء القريبة تعرفا تاما ، انطلقت تزحف على طريقتها المألوفة ، وسرعان ما عثرت على الشق الذي تعودت ان تتسلل منه الى المعبد المقدس .

لما وصلت الى المكان تلفتت حولها مدفوعة بحب الاستطلاع ، ومع ان الضوء المنبعث منها لم يكف لانارة كل الاشياء المنتشرة حولها ، فقد استطاعت ان ترى الاشياء القريبة منها رؤية واضحة .

تطلعت في رهبة ودهشة الى فجوة تلمع فوقها ، نصب فيها تمثال ملك جليل من الذهب الخالص .

كان التمثال يزيد في حجمه على حجم الانسان الطبيعي ، ولكنه بدا لها من ناحية الشكل اقرب الى أن يكون لرجل صغير السن منه لرجل ضخم عظيم . كان يلفح جسمه المتناسق معطف بسيط ، وتشد شعره باقة من ورق البلوط .

لم تكد الحية تبصر هذا التمثال الجليل حتى فتح الملك فمه بالكلام وسأل : ـ « من اين تأتين ؟ »

اجابت الحية : « من الحفر التي يسكنها الذهب . »

سأل الملك : « اي شيء اروع من الذهب ؟ »

فأجابت الحية : « النور »

عاد الملك يسأل : « اي شيء اعذب من النور ؟ »

فردت الحية : الحديث .

كانت في خلال هذا الحديث قد القت نظرة جانبية على الفجوة القريبة فابصرت صورة اخرى رائعة ، كان يجلس في هذه الفجوة ملك فضي ذو قوام طويل اقرب الى النحول ، وكان يغطي جسده رداء مزركش وتاج وحزام وصولجان مزين بالاحجار الثمينة ، وكان يظهر على وجهه مرح الكبرياء ، وبدا عليه انه يريد الكلام حين لمع على حين فجأة في الجدار المرمري عرق كان يتخلله بلون معتم ، وارسل في المعبد كله نورا بهيجا . ابصرت الحية الملك الثالث على هذا النور ، وكان ملكا من نحاس في هيئة تدل على البأس والسلطان ، استند على عجزه ، وزينت هامته باقة من الغار ، وبدا اشبه بصخر ، منه بانسان . ارادت الحية ان تلتفت الى الملك الرابع ، وكان يبدو على مسافة شديدة البعد عنها ، عندما انشق الجدار وانتفض العرق المضيء كالبرق الخاطف ثم اختفى.

لفت انتباه الحية رجل متوسط الحجم يخرج من الجدار .

كان يرتدي ملابس فلاح ، ويحمل في يده مصباحا صغيرا يطيب للمرء ان يتطلع الى شعلته الساكنة التي تغمر بنورها على نحو مدهش

جوانب المعبد الكنسي كله ، دون ان تلقى حولها ظلا واحدا .

«سأل الملك الذهبي : لم ابيت وعندنا نور ؟ »

ـ « تعلمون انه لا يجوز لي ان انير المعتم ! »

وسأل الملك الفضي : « هل تنتهي دولتي ؟ »

فرد العجوز : « في وقت متأخر او لن تنتهي »

وشرع الملك النحاسي يسأل في صوت قوي : « متى اوقف علـى قدمـي ؟ »

اجاب العجوز : « قريبا . »

هاد الملك يسأل : « مع من ينبغي على ان اتحد ؟ »

قال العجوز : « مع اخوتك الكبار »

سأل الملك : « وماذا سيكون مصير الاخ الاصغر ؟ »

قال العجوز : « سوف يجلس » .

هتف الملك الرابع في صوت خشن : « لست متعبا »

بينما كان هؤلاء يتحدثون تسللت الحية في رفق ، وراحت تتجول في جنبات المعبد ، فتأملت كل شيء ، واخذت تتطلع الى الملك الرابع عن كثب . كان يقف مستندا الى احد الاعمدة ، وكان هيئته الشامخة اقرب الى الفظاظة منها الى الجمال ، غير انه كان عسيرا على المرء ان يميز المعدن الذي صب منه التمثال .

فاذا تأملته العين تأملا دقيقا ، تبين انه خليط من المعادن الثلاثة التي صب منها اخوته .

ولكن يبدو ان هذه المعادن الثلاثة لم تذب مع بعضها تماما عند صب التمثال ، فتخللت العروق الذهبية والفضية كتلة من المعدن الخام على غير انتظام ، مما جعل منظر التمثال لا تستريح له العين .

عندئذ سأل الملك الذهبي الرجل « كم من الاسرار تعرف ؟ »

فاجاب العجوز : « ثلاثة » .

سأله الملك الفضي : « وايها اهم ؟ »

فاجاب الملك الفضي : « السر المكشوف » .

سأل الملك النحاسي : « وهل تكشف لنا نحن ايضا عنه ؟ »

قال العجوز : « بمجرد ان أعرف الرابع » .

فدمدم الملك المركب من معادن مختلطة كأنه يكلم نفسه :

« وما شأني انا بهذا ! »

قالت الحية : « انا اعرف السر الرابع » .

واقتربت من العجوز ووشوشت شيئا في اذنه ـ هتف العجوز بصوت رهيب :

« لقد آن الاوان » !. وترددت اصداء الصوت في المعبد، ورنت التماثيل المعدنية ، وفي لحظة غاص العجوز ناحية الغرب ، والحيـة ناحية الشرق ، واسرع كلاهما يعبر الهاوية الصحرية لا يلوي على شيء.

امتلأت كل الدروب التي جابها العجوز في لمح البصر بالذهب ، ذلك ان مصباحه كان يمتلك خاصية عجيبة تجعله يحول كل الاحجار الى ذهب ، وكل خشب الى فضة ، والحيوانات الميتة الى احجار ثمينة ، كما تجعله يحيل جميع المعادن الى تراب ، وكان لا بد للمصباح ، لكي يفعل فعله هذا ، من ان ينفرد وحده بالانارة ، فاذا اشتعل نور آخر بجواره ، لم يصدر عنه سوى ظل جميل لامع ، فيشيع البهجة والانتعاش دائما في كل حي .

دخل العجوز كوخه الذي بناه فوق الجبل ، ووجد امرأته في هم شديد ـ كانت تجلس امام الموقد وتبكي ، ولا تستطيع ان تدخل الطمأنينة الى نفسها . هتفت بزوجها :

« ما اشقاني ! ما كنت اليوم اريد ان اتركك تغادر الكوخ ! » .

سألها العجوز في هدوء تام « ماذا جرى اذن ؟ »

قالت وهي تنشج بالبكاء : « ما كدت تخرج حتى جاء سائحـان شرسا الطبع ، فوقفا امام الباب ، وبغير حذر مني تركتهما يدخلان ، فقد بدوا لي سيدين مهذبين ، لطيفين ، وكانا يتلفعان بهالتين خفيفتين ، مما يحمل على الظن بأنهما نوران تأنهان ، وما كادا يدخلان البيت حتى شرعا يتملقاني بالفاظ وقحة ، ويبالغان في الحاحهما علي حتى لاخجل من مجرد التفكير فيهما » .

قال الرجل وهو يبتسم : « لا شك ان السيدين أرادا ان يمزحا معك ، فقد كان عليهما مراعاة لسنك ان يعاملاك بأدب كما يقضي بذلك العرف » .

هتفت المرأة قائلة : « ماذا ايها العجوز ! ايها العجوز ! هل علي دائما ان اسمعك تتحدث عن عمري ؟ وكم يبلغ عمري ! ذلك الادب الذي يقضي به العرف ! انني اعرف ما اعرف . تلفت حولك فحسب ، لترى كيف تبدو الجدران ، تطلع الى الاحجار القديمة ،التي لم ارها منذ مائة عام ، كل ما كان عليها من ذهب قد لعقاه ، ولا يمكنك ان تصدق بأي سرعة خاطفة فعلا ذلك ، واكدا دائما ان طعمه الذ بكثير من الذهب المعروف . وبعد ان مسحا ما على الجدران ، بدت عليهما الغبطة الشديدة ، والحق انهما اصبحا في وقت قصير ، اكبر بكثير مما كانا عليه ، واعرض ، واشد بريقا ، ثم اذا بهما يعودان الى مداعبتي ، فيتمسحان بي ، ويلقبانني ملكتهما ، وينفضان انفسهما ، فيتساقط قدر كبير من الذهب وما زلت ترى كيف يلتمع نورهما تحت الاريكة . ولكن وأسفاه ، التهم كلبنا الصغير السمين بعض قطع الذهب ، وها انت تراه يرقد ميتا عند الموقد ، يا للحيوان المسكين ! ما ابعد السرور عني ! انني لم اتبين ذلك الا بعد انصرافهما ، ولو عرفت لما وعدتهما بتسديد دينهما للمراكبي » .

سأل العجوز : « بأي شيء يدينان له ؟ »

قالت المرأة : « بثلاثة رؤوس قرنبيط ، وثلاث خرشوفات ، وثلاث بصلات ، لقد وعدتهما اذا اصبح الصباح ان احملها جميعا الى النهر .

قال العجوز : تستطيعين ان تصنعي فيهما هذا الجميل ، فسوف يردانه لنا في المستقبل .

ـ لا ادري ان كانا سيقدمان لنا خدماتهما ، ولكنني وعدتهما واقسمت على وعدي .

كانت نار الموقد في اثناء ذلك قد خمدت ، فأهال عليها العجوز

مؤلفات سيمون دو بوفوار

* * *

	ف.ل
* المثقفون (جزءان)	١٤٠٠
* مغامرة الانسان	١٥٠
* الوجودية وحكمة الشعوب	١٧٥
* نحو اخلاق وجودية	٢٢٥

ترجمة جورج طرابيشي

* بريجيت باردو وآفة لولينا ١٥٠

منشورات دار الاداب

كثيرا من الرماد ، وجمع القطع الذهبية جانبا ، واذا بمصباحه الصغير يعود فيلمع من نفسه اجمل لمعان ، والجدران تكسوها طبقة من الذهب ، والكلب الصغير السمين يتحول الى اجمل حجر من العقيق ، لا يمكن ان يتصوره الانسان . وتبدلت الالوان على الحجر الثمين ، بين اللون البني واللون الاسود ، فجعلت منه تحفة فنية نادرة الوجود .

قال العجوز : خذي سلتك ، وضعي حجر العقيق فيها ، ثم خذي رؤوس القرنبيط الثلاثة ، والخرشوفات الثلاث ، والبصلات الثلاث ، فضعيها حولها ، واحملي الجميع الى النهر ! فاذا جاء وقت الظهيرة ، فاجعلي الحية تحملك الى الشاطىء الاخر ، وزوري الزنبقة الحسناء واعطيها حجر العقيق ! انها ستعيده حيا ! مثلما تميت بلمستها كل حي! وسوف تجد فيه صاحبا غاليا ، قولي لها : ان عليها الا تبتئس ، ان يوم خلاصها قد اقترب ، والشقاء العظيم تستطيع ان تعده سعادة عظيمة ، فقد آن الاوان » .

حزمت العجوز سلتها ، ومضت في طريقها عند طلوع النهار ، كانت الشمس المشرقة تسطع على صفحة النهر الذي كان يلمع من بعيد ، مضت العجوز في خطى متئدة ، فقد كانت السلة تضغط على رأسها ، لو لم يكن حجر العقيق هو الذي يرزح بثقله عليها . لم تحس بما كانت تحمله من اشياء ، بل لقد كانت السلة ترتفع الى اعلى وتطير فوق رأسها، ولكن حمل خضر طازجة او حيوان صغير حي كان ثقيلا عليها .

كانت قد مضت في طريقها بعض الوقت وهي تشعر بالضيق والملل، وعلى حين فجأة وقفت ساكنة مفزوعة ، فقد كادت تدوس على ظل العملاق، الذي كان يتمدد على الارض ، ويكاد يصل اليها .

ثم وقع بصرها على العملاق الجبار ، الذي كان يخرج من الماء بعد ان استحم في النهر . وتحيرت كيف تتحاشاه . لم يكد يراها حتى بدأ يحييها في مرح ، ثم مد يديه على الفور الى السلة فأخرجا في خفة ومهارة رأس قرنبيط ، وخرشوفة وبصلة ، وناولاها الى فم العملاق الذي تابع عندئذ رحلته النهرية ، وافسح للمرأة الطريق .

اخذت تسأل نفسها ان كان من الافضل ان تعود ادراجها فتحضر بدل القطع الناقصة من حديقتها ، ومضت بين هذه الشكوك التي تساورها الى الامام ، فسرعان ما بلغت ضفة النهر . لبثت طويلا تنتظر المراكبي حتى لمحته اخيرا يعبر النهر ومعه مسافر عجيب ، ونزل من المركب شاب نبيل ، جميل الطلعة ، لم تكد تشبع عينيها من النظر اليه .

نادى المراكبي الشيخ : ماذا تحضرين معك ؟ . اجابت العجوز وهي تشير الى بضاعتها :

انها الخضروات التي تدين لكم الانوار التائهة بها .

لما وجد الشيخ من كل صنف قطعتين فحسب ، استولى عليه الضيق ، واكد لها انه لا يستطيع ان يقبلها . وراحت العجوز تتوسل اليه في حرارة ، وتصف له كيف انها لا تستطيع ان تعود على الفور الى البيت ، وانه يشق عليها ان تقطع الطريق مرة اخرى والحمل الثقيل فوق رأسها ، بقي الشيخ مصرا على رفضه ، واخذ يؤكد لها ان الامر ليس بيده قائلا : علي ان اجمع نصيبي المستحق لي واتركه تسع ساعات، ولا يصح لي ان اقبل شيئا حتى القي للنهر بثلثه . بعد اخذ ورد طويلين قال الشيخ اخيرا : ما زالت هناك وسيلة واحدة . اذا تعهدت للنهر وقبلت ان تعترفي له بدينك ، فاني على استعداد لان اخذ القطع الست ، ولكن هذا لا يخلو من خطر .

ـ واذا حافظت على كلمتي ، فهل يمنع ذلك الخطر عني !؟

استطرد الشيخ قائلا :

ـ لن تتعرضي لاقل شيء ، اغمسي يدك في النهر ، واقطعي عهدا بأن توفي دينك في خلال اربع وعشرين ساعة » .

فعملت العجوز بما اشار عليها ، ولكن كم كانت دهشتها حين جذبت يدها من الماء فالفتها سوداء بلون الفحم ! اخذت توبخ العجوز توبيخا مرا ، تؤكد ان يديها كانتا دائما اجمل ما فيها ، وانها على الرغم من العمل الشاق قد عرفت دائما كيف تحافظ على بياض هذين العضوين النبيلين ورقتهما ، تطلعت الى اليد في ضيق شديد ، وهتفت في يأس مرير :

ان هذا لاسوأ ! «ارى انها تقلصت ، لقد صارت اصغر بكثير من اليد الاخرى . »

قال الشيخ : « انها الان تبدو كذلك فحسب ، ولكنك اذا لم تحافظي على كلمتك ، فقد يتحقق ما تخشين منه ، ستتقلص اليد شيئا فشيئا ، حتى تختفي في النهاية تماما ، بدون ان تحرمي من القدرة على استعمالها . سوف يكون في استطاعتك ان تقضي بها كل حوائجك ، ولكن لن يراها احد « قالت العجوز » وددت لو انني عجزت عن استعمالها ولم يلحظ احد عليها شيئا . ومع هذا فلا اهمية لذلك ، سوف احافظ على عهدي ، لكي اتخلص سريعا من هذا الجلد الاسود وهذا الهم الثقيل.

واسرعت تتأمل السلة التي ارتفعت من تلقاء نفسها فوق قمة رأسها وطارت حرة في الفضاء ، وعجلت من سيرها لتلحق بالشاب الذي كان يمضي على الشاطىء وديعا تائها في افكاره . كانت هيئته الرائعة وحلته العجيبة قد تركا في نفسها انطباعا عميقا .

كان يغطي صدره درع براق تتحرك من خلاله كل اجزاء جسده الجميل ، ويلفع كتفيه معطف قرمزي ، وعلى رأسه العاري تنمو خصلات جميلة من الشعر البني ، وكانت اشعة الشمس تلفح وجهه النقي الصبوح ، كما تلفح قدميه المتناسقتين . مضى يسير في اتزان على الرمل الساخن بقدميه العاريتين ، وبدا كأن الما عميقا يقيد كل انطباعاته الظاهرة ويخيم عليها .

حاولت العجوز الثرثارة ان تجذبه للحديث ، غير ان كلماته القليلة كانت تصدها دائما عنه ، حتى يئست اخيرا ، على الرغم من عينيه الجميلتين ، من محاولة الحديث بغير طائل ، فودعته قائلة :

انك يا سيدي تسير ببطء شديد ولا يجوز لي ان اترك هذه اللحظة تفلت مني حتى اعبر النهر على ظهر الحية الخضراء ، واقدم للزنبقة الحسناء الهدية الرائعة التي حملني لها زوجي .

القت هذه الكلمات وانطلقت مسرعة ، ولم تكد تصل الى سمع الشاب الجميل حتى اسرع يلاحقها وهو يهتف : « هل تذهبين الى الزنبقة الحسناء ؟ اذن فنحن نسير على درب واحد ، ما هذه الهدية التي تحملينها لها ؟ »

ردت المرأة قائلة : « لا يليق بك يا سيدي ، بعدما رفضت الاجابة على اسئلتي رفضا قاطعا ان تحاول التعرف على اسراري بهذا الاصرار فان قبلت ان تبادلني سرا بسر وقلت لي عن اقدار حياتك ، فلن اخفي عليك قصتي وقصة هديتي .. وكان ان اتفقا سريعا ، فروت له المرأة حكايتها واخبرته بحكاية الكلب وتركته يتأمل الهدية الرائعة .

مد الشاب يده فتناول التحفة الطبيعية من السلة واخذ الكلب الذي بدا كأنه استسلم لنوم هادىء وديع ، بين ذراعيه ، وهتف قائلا : ايها الحيوان السعيد ! سوف تلمسك يدانا ، وسوف تعيدان اليك الحياة ، اما الاحياء فانهم يهربون منها ، خشية ان يصيبهم قدر حزين ولكن اي حزن تراني اتحدث عنه ؟ اليس ادعى للهم والحزن ان يصاب الانسان بالشلل اذا حضر امامها ، من ان يموت بلمسة من يدها ؟ ثم التفت الى العجوز قائلا :

انظري الي ، اي تعاسة كتب علي ان احتملها وانا في مثل هذه السن ! هذا الدرع الذي كنت احمله على صدري واحارب به في شرف، وهذا المعطف القرمزي الذي اردت بحكمي الرشيد ان اكون جديرا به لقد تركهما لي القدر عبئا ثقيلا احمله بغير داع ، وحلية سخيفة لا يلتفت اليها احد : التاج ، والصولجان ، والسيف ، ذهبت جميعا ، وانا بعد عار ومحتاج مثل سواي من ابناء الارض ، هكذا تصنع عيناها الجميلتان الزرقاوان فتسلبان كل كائن حي طاقة الحياة ، وتجعلان كل من لم تلمسه يدها لمسة الموت يشعر كأنه استحال الى شبح حي .

هكذا راح يرسل شكواه ، فلم يشبع بحال رغبة العجوز التي لم يكن يهمها ان تخبر باطنه بقدر ما كانت تريد ان تعرف ظاهره . لم تعرف منه اسم ابيه ولا اسم مملكته ، مسح بيده على الكلب المتحجر الذي

بدا كان اشعة الشمس وصدر الشاب الدافيء قد غمراه بالدفء وبعثا فيه الحياة . اخذ يسأل ويطيل في السؤال عن الرجل ذي المصباح ، وعن اثار النور المقدس ، وبدا كأنه يعد نفسه من وراء ذلك كله خيرا كثيرا يستعين به على حاله البائسة .

وبينما هما في الحديث ، اذا بهما يبصران الجسر من بعيد يصل بين الشاطئين في هيئة قوس رائع الجمال ، يلتمع في ابهى صورة في وهج الشمس . ملكتهما الدهشة فلم يسبق لهما رؤية هذا البناء على هذه الصورة من الحسن والروعة هتف الامير قائلا :

ماذا ؟ الم يكن على درجة كافية من الجمال عندما مثل امام اعيننا كأنه بني من حجر اليشب ، والحجر اليماني الاخضر ؟ الا يجفل الانسان خوفا من ان يخطو بقدميه فوقه وهو يبدو كأنما ركب من الزمرد والزبرجد والياقوت في تنوع فتان ؟

لم يكن احد منهما يعلم بما جرى للحية ، لقد كانت هي التي تنصب نفسها في كل يوم عند الظهيرة ، فوق النهر وتظهر في هيئة جسر جريء البنيان . تقدم المسافران في اجلال ورهبة فعبراه صامتين .

ما كادا يبلغان الشاطيء الاخر حتى بدأ الجسر يخفق ويتحرك ، وما هي الا برهة قصيرة حتى لامس سطح الماء وبرزت الحية الخضراء في هيئتها الاصلية زاحفة على اليابسة لتلحق بالمسافرين ـ ما كادا ينتهيان من تقديم الشكر اليها على سماحها لهما بعبور النهر فوق ظهرها حتى احسا بانه لا بد ان يكون في صحبة ثلاثتهم اشخاص اخرون ، وان لم يستطيعوا ان يروهم رأي العين . تناهى الى سمعهم صوت فحيح ردت الحية عليه بفحيح مثله ، اصغوا بانتباه ، واستطاعوا اخيرا ان يميزوا هذه الكلمات التي راحت تتبادلها اصوات مشتركة في الحديث :

سوف نبدأ بالتجوال خفية في حديقة الزنبقة الحسناء فننظر فيها ، ونرجوكما عند مطلع النهار بمجرد ان تلمحا صورتنا ان تقدمانا الى الجمال الكامل . سوف تجداننا عند حافة البحيرة العظيمة اجابت الحية قائلة : « ليكن الامر كذلك » . وضاع صوت فحيح في الهواء .

تشاور مسافرونا الثلاثة فيما بينهم حول النظام الذي يمثلون به بين يدي الجميلة ، فمهما تعدد الاشخاص الذين يمكنهم ان يحيطوا بها ، فلم يكن يجوز لهم الا ان يأتوا وينصرفوا كل على حده حتى لا تصيبهم آلام حادة .

اقتربت المرأة التي تحمل الكلب المسوخ في سلتها من الحديقة وراحت تبحث عن ولية نعمتها التي كان من السهل عليها ان تجدها ، فقد كانت تغني على القيثارة ، والانغام الحبيبة التي تنساب منها تبدو في شكل حلقات تطوف على سطح البحيرة الساكنة ، وتحرك العشب والاغصان كأنها نسمات خفيفة . كانت تجلس في مكان مغلق مخضر ، في ظل مجموعة رائعة من اشجار مختلفة الاشكال ، يشع السحر منها من جديد ، فيفتن بصر العجوز ، وسمعها ، وقلبها ، فتدنو في نشوة منها ، وتخلف بينها وبين نفسها ان الجميلة في فترة غيابها عنها ، لم تزد الا جمالا ! ولم تنتظر المرأة الطيبة فنادت الحسناء الحبيبة من بعيد ، محيية مادحة :

« اي سعادة ان تراك عينا انسان ! اي سماء يبسطها وجودك من حولك ! يا لسحر القيثارة في حجرك ، وذراعيك تلتفان بها في حنان ! ما اجملها وهي تبدو كأنها تشتاق الى صدرك ، وما اعذب رنينها تحت لمسات اصابعك النحيلة ! سعدت ايها الشاب ثلاث مرات ، يا من قدر لك ان تحتل مكانا ! » بهذه الكلمات ازدادت منها اقترابا ، فتحت الزنبقة الحسناء عينيها وتركت يديها تسقطان وردت قائلة : لا تعكري صفوي بمديح يأتي في غير اوانه فما يزيدني قولك الا شعورا بتعاستي ، انظري عند قدمي ، ترى طائر الكناريا المسكين يرقد ميتا ، وهو الذي طالما صاحب اغاني بأحلى النغم . كان من عادته ان يجلس على قيثارتي ، وينصب قامته بحذر حتى لا يلامسني ، واليوم وانا ادندن باغنية الصباح الهادئة ، بعد ان صحوت منتعشة من النوم ، وبينما مغني الصغير يرسل الحانه المنسجمة في مرح لم يسبق اليه ، اذا بصقر ينطلق من فوق رأسي ، ويهرب الحيوان المسكين الصغير مفزوعا الى صدري ، فاشعر في نفس اللحظة بالاختلاجات الاخيرة لحياته التي تفارقه . حقا لقد اصابت اللص نظرتي ، فترنح هناك وسقط صريعا على الماء ، ولكن ماذا يفيدني الجزاء الذي لاقاه ! حبيبي مات ، وقبره ان يزيد الا من ضراوة الدغل المحزن في حديقتي .

هتفت المرأة وهي تجفف دمعة اثارتها حكاية الفتاة البائسة في عينيها : تشجعي ايتها الزنبقة الحسناء ! تماسكي ! زوجي العجوز كلفني ان اقول لك ان عليك ان تعتدلي في حزنك ، وان تري في الشقاء العظيم رسولا ينبيء بسعادة اعظم ، ذلك ان الاوان قد آن . واستطردت العجوز تقول : « حقا ما اعجب ما يحدث في العالم . انظري فحسب الى يدي، لتري كيف اصبحت سوداء ! حقا لقد صارت اصغر بكثير مما كانت عليه، لا بد ان اسرع قبل ان تختفي تماما ! لم كان علي ان احسن الى الانوار التائهة ، كم كان علي ان اقابل العملاق وان اغمس يدي في ماء النهر ؟ الا تستطيعين ان تعطيني رأس قرنبيط ، وخرشوفة ، وبصلة ؟ سوف احملها الى النهر ، فترتد يدي بيضاء كما كانت ، حتى لاكاد اضعها الى جانب يدك . »

ـ قد تجدين القرنبيط والبصل ، اما الخرشوف فسوف تبحثين عنه عبثا ، كل النباتات في بستاني الكبير لا تحمل زهرا ولا ثمرا ، ولكن كل نبتة اقطفها واضعها على قبر حبيب تخضر على الفور وتترعرع .

كل هذه المجموعات من الاشجار ، هذه الاعشاب البرية ، هذه المروج قد رأيتها للاسف وهي تنمو ، مظلات اشجار الصنوبر هذه ، سلات اشجار السرو ، الكتل الضخمة من اشجار البلوط والزان ، كلها كانت نبتات صغيرة ، اثرا محزنا من يدي غرست في ارض كانت من قبل عقيمة .

لم تنتبه العجوز كثيرا لهذا الكلام ، فقد كانت مشغولة بتأمل يدها التي كانت تزداد في وجود الزنبقة الجميلة سوادا ، فبدت كأنها تتضاءل بين لحظة واخرى . ارادت ان تتناول سلتها وتمضي مسرعة حين تنبهت الى انها نسيت اعز شيء جاءت من اجله . مدت يدها فاخرجت الكلب المسوخ من السلة ووضعته على العشب غير بعيد من الحسناء ، وخاطبتها قائلة : « زوجي يرسل لك هذا التذكار ، تعلمين انك تستطيعين ان تردي الحياة الى هذا الحجر الثمين بلمسة منك . يقينا سوف يسعدك الحيوان اللطيف الوفي ، والهم الذي يصيبني اذا تصورت انني سأفقده لن يخفف منه الا التفكير في انك انت التي ستملكينه . »

نظرت الزنبقة الحسناء الى الحيوان اللطيف نظرة مبتهجة لم تخل من الدهشة وقالت :

ان علامات كثيرة تأتي مما وتبعث في نفسي بعض الامل ، ولكن آه ! اليس ذلك مجرد وهم من اوهام طبيعتنا ، ان نصور لانفسنا ، حين يجتمع علينا الكثير من البؤس والشقاء ، ان الخير قد اقترب ؟.

ماذا تفيدني العلامات الكثيرة الطيبة ؟
موت الطائر ويد الصديقة السوداء ؟
والكلب الذي تحول الى حجر ثمين ، هل هناك ما يشبهه ؟
الم يبعث به المصباح الي ؟
بعيدة عن كل متعة عذبة يحظى بها البشر .
لا ارى الفا لنفسي غير الحزن والاكتئاب .
آه ! لم لا ارى المعبد على ضفة النهر .
آه ! لم تأخر بناء الجسر .

استمعت المرأة الطيبة نافدة الصبر الى هذا الغناء الذي صاحبته الزنبقة الحسناء بأعذب انغام قيثارتها ، وكان حريا ان يرسل النشوة الى كل من يستمع اليه . ارادت ان تستأذن في الانصراف حين عطلها وصول الحية الخضراء .

كانت الحية قد سمعت الاسطر الاخيرة من الاغنية فأسرعت تبث الثقة والاطمئنان في نفس الزنبقة الحسناء ، وهتفت قائلة : نبوءة الجسر قد تحققت ! ما عليك الا ان تسألي هذه المرأة الطيبة ، وستصف لك كيف يبدو القوس الان في صورة رائعة ، ما كان من قبل حجر يشب غير شفاف ، وما كان حجرا يمانيا اخضر فحسب ، لا ينفذ فيه النور الا عند

الحوافي ، قد صار الان حجرا ثمينا شفافا ، ما من برلنتي بلغ هـذا الصفاء ، وما من زمرد فاق هذه الالوان الجميلة . »

قالت الزنبقة : « اهنئك على هذا ، ولكن اعذريني اذا كنت ارى ان النبوءة لم تتحقق . فعلى قوس الجسر المرتفع يستطيع المشاة وحدهم ان يسيروا ، بينما كان الوعد ان تتمكن الخيول والعربات والمسافرون من عبوره من الناحيتين ، الم يرد في النبوءة ذكر الاعمدة العظيمة التي تنبثق من النهر نفسه ؟. » كانت العجوز تثبت عينيها على يدها ، فقطعت هذا الحديث واستأذنت في الانصراف فقالت الزنبقة الحسناء : « تريثي لحظة واحدة ، وخذي طائر الكناريا المسكين معك ! توسلي للمصباح ان يحوله الى حجر تروباس جميل ، اريد ان ارد اليه الحياة بلمسة مني . اسرعي بقدر ما تستطيعين ! فلن تغيب الشمس حتى يدب الفساد الى جثمان الحيوان المسكين ، ويمزق الى الابد التناسق الجميل في هيئته . » وضعت العجوز الجثمان الصغير بين اوراق الشجر الرقيقة في السلة ومضت مسرعة .

استطردت الحية تصل الحديث المقطوع قائلة : « مهما يكن الامر نقد تم بناء المعبد . »

فردت الحسناء قائلة : « ولكنه لا يطل على النهر . »

قالت الحية : « ما زال يسكن في أعماق الارض ، لقد رأيت الملوك وتحدثت معهم . »

ـ ومتى يبعثون من رقادهم ؟ »

ـ سمعت الكلمات الكبيرة تتردد في المعبد : « لقد آن الاوان . »

عمت السعادة الصافية وجه الحسناء وقالت : ها انا اسمع اليوم الكلمات السعيدة للمرة الثانية متى يأتي اليوم الذي اسمعها فيه للمرة الثالثة ؟

نهضت واقفة ، واذا بغادة ساحرة تدلف قادمة من الدغل وتأخذ القيثارة ، من يدها ، وتبعتها غادة اخرى ضمت الكرسي العاجي المنقوش الذي كانت تجلس عليه الحسناء ، وتناولت المخدة الفضية تحت ذراعها. ثم ظهرت ثالثة كانت تحمل في يدها مظلة مطرزة باللؤلؤ وبدا عليها كأنها تنتظر اشارة من الحسناء لتعرف منها ان كانت تحتاج اليها لتصاحبها في نزهة قصيرة . كانت الغادات الثلاث من الحسن والرقة بما يعجز عن وصفه كل تعبير ، ومع ذلك فلم يزدن الزنبقة الا حسنا ، اذ كان على كل منهن ان تعترف بانها لا تستطيع بحال ان تقارن نفسها بها.

كانت الزنبقة الحسناء في اثناء ذلك ، تتأمل الكلب العجيب منشرحة الصدر ، انحنت عليه ولمسته ، فانطلق في نفس اللحظة يقفز امامها ! اخذ يتلفت حوله في مرح الى ولية نعمته يحييها اصدق تحية.

تناولته بين يديها ، وضمته الى صدرها ، وهتفت قائلة : « مرحبا بك ، مع انك لا تزال بارد الاعضاء ، ومع ان نصف حياة فحسب تختلج فيك ، فاني اقول لك : « سوف امنحك الحب في حنان ، وامرح معك في وداعة ، وامسح عليك كما يفعل الصديق ، واشدك الى صدري . ثم اطلقته من بين يديها ، وصرفته عنها ، وعادت تنادي عليه ، وتعابثه متلطفة ، وتتسلى معه في مرح وبراءة على العشب مرسلة النشوة في كل من يرى فرحتها ولا يملك الا ان يشاركها فيها ، مثلما فاض حزنها من لحظات قليلة من كل قلب فشاطرها فيها .

وصل الشاب الحزين فقطع هذه البهجة وهذا المرح الخلاب . دخل كما عرفناه من قبل ، ولكن بدا عليه كأن لفح الظهيرة قد زاده اجهادا ، كما بدا عليه في حضور المحبوبة كأنه يزداد شحوبا في كل لحظة ، كان يحمل الصقر على كفه وقد استراح عليها في هدوء وترك جناحيه تسقطان الى جانبه .

بادرته الزنبقة هاتفة : ليس من الصداقة في شيء ان تحضر معك هذا الحيوان الكريه وتضعه امام عيني ، هذا الوحش الذي قتل اليوم مغنى الصغير . »

اجابها الشاب قائلا : « لا تعتبي على الطائر البائس ، بل وجهي التهمة الى نفسك والى القدر ، واذني لي ان اصاحب رفيق تعاستي . »

لم يكف الكلب خلال ذلك عن مداعبة الجميلة ، وراحت بدورها تعامل المحبوب الشفاف معاملة الصديق للصديق ، اخذت تدفعه بيديها لكي تبعده عنها ، ثم تجري نحوه لكي تعود فتجذبه اليها . كانت تحاول ان تمسك به حين يفلت منها ، وتطرده حين يحاول الالحاح على مداعبتها. اخذ الشاب يتطلع اليها صامتا وحنقه يزداد ، حتى اذا مدت يديها اخيرا فتناولت الحيوان المقيت الذي بدا له بشعا غاية البشاعة ، بين ذراعيها ، وضمته الى صدرها الناصع البياض ، ولثمت شفتاها السماويتان خيشومه الاسود ، نفد صبره كله وصاح في يأس مرير : هل يتحتم علي ، انا الذي حكم عليه القدر الحزين حكما قد يدوم الى الابد بفراقك ، بينما اعيش الى جوارك ، انا الذي فقدت بسببك كل شيء ، لا بل فقدت نفسي ، هل يتحتم علي ان اشهد بعيني كيف يثير مثل هذا المسخ المشوه السعادة فيك ، وكيف يأسر عاطفتك ويتمتع بضمك ؟ هل حكم علي ان اظل رائحا غاديا وان اقيس الدائرة المحزنة وانا اعبر النهر جيئة وذهابا ؟ لا ! فلم تزل تتقد في صدري شرارة من بسالتي القديمة! فلتشتعل في هذه اللحظة للمرة الاخيرة ! ان كانت الاحجار يباح لها ان تستريح على صدرك فلا تحول بدوري الى حجر ، وان كانت لمسة منك تميت ، فلامت بلمسة من يديك . »

لم يكد يفرغ من هذه الكلمات حتى صدرت عنه حركة عنيفة ، فطار الصقر من يده ، اما هو فاندفع يلقي بنفسه على الجميلة ، ومدت يديها تريد ان توقفه ، ولكن لمستها له كانت اسرع منها .

غاب عنه الوعي ، واحست والفزع يستولي عليها بالحمل الجميل الجميل يستقر على صدرها . اجفلت الى الوراء صارخة وسقط الشاب الطاهر من بين ذراعيها على الارض فاقد الحياة ..

كانت الكارثة قد وقعت ! وقفت الزنبقة الحلوة بلا حراك تحدق في جمود الى الجثمان الذي فارقته الروح ، شعرت كأن قلبها يتوقف في صدرها ، وكانت عيناها بلا دموع ، حاول الكلب عبثا ان يستدرجها الى مداعبته ، كان العالم كله في عينيها قد مات بموت صديقها ، لم يتلفت بأسها الاخرس يطلب المساعدة ، فلم تكن تدري كيف السبيل اليها.

غير ان الحية على العكس من ذلك زادت نشاطها ، بدا عليها كأنها تفكر في وسيلة للنجاة ، وساعدت حركاتها العجيبة حقا في ان تغطل النتائج المفزعة للكارثة لبعض الوقت على اقل تقدير . مددت جسدها الطري المتشنى في دائرة واسعة حول الجثمان ، وامسكت طرف ذيلها بأنيابها وبقيت راقدة في هدوء .

لم يمض وقت طويل حتى ظهرت احدى خادمات الزنبقة الجميلات تحمل الكرسي العاجي ، واخذت تلح على الجميلة باشاراتها الودودة حتى جلست .

وجاءت في اثرها الخادمة الثانية ، تحمل قناعا بلون النار فزينت به وجه سيدتها اكثر من ان تغطيه به ، اما الثالثة فناولتها القيثارة ، ولم تكد الزنبقة الحسناء تضغط الآلة الساحرة اليها وتضرب على اوتارها بعض النغمات حتى رجعت الخادمة الاولى تحمل في يدها مرآة ناصعة مستديرة ، جلست بها امام الجميلة وراحت تتلقف نظراتها وتعرض عليها اعذب صورة يمكن ان تقع عليها عين الانسان في الطبيعة . زاد الالم من جمالها ، والقناع من سحرها ، والقيثارة من رقتها وبمثل ما تمنى كل انسان ان تتبدل حالها الحزينة ، فقد ود لو يتشبث الى

مكتبة عبد القيوم

زوروا مكتبة عبد القيوم ببورتسودان تجدوا احدث المطبوعات العربية ، وكذلك مجلة الاداب البيروتية ومنشورات دار الاداب .

الابد بصورتها كما تنعكس على المرآة .

راحت تتطلع في سكون الى المرآة ، وتنتزع من الاوتار انغاما مؤثرة، ويزداد عليها الالم فتردد الاوتار لوعتها في قوة ، وفتحت فمها مرة بعد مرة لتغني ، ولكن صوتها لم يطاوعها ، ثم سرعان ما ذاب حزنها في دموعها ، وامسكت فتاتان بذراعيها تعينانها ، وسقطت القيثارة من حجرها فتلقفتها الخادمة بسرعة وحملتها جانبا .

فحت الحية في صوت خفيض ولكنه مسموع : « من يحضر لنا الرجل ذا المصباح قبل ان تغيب الشمس ؟ »

تطلعت الفتيات الى بعضهن وانهمرت دموع الزنبقة ، وفي هذه اللحظة رجعت المرآة ذات السلة لاهثة الانفاس ، اخذت تصيح : لقد ضعت وشوهت ! انظرن كيف اوشكت يدي ان تختفي ، لا الملاح ولا العملاق قبل ان يعبر بي النهر ، لانني ما زلت مدينة للنهر ، عبثا حاولت ان اقدم لهما مائة رأس قرنبيط ومائة خرشوفة . انهما لا يريدان اكثر من الثمار الثلاث ، وما من خرشوفة واحدة استطيع العثور عليها في هذه الناحية ، قالت الحية : انسي ما اصابك من هم ، وحاولي الان ان تعاونينا فقد يكون في ذلك العون لك ايضا . اسرعي بقدر ما نستطيعين ففتشي عن النورين التائهين . ما زال ضوء النهار يحول دون رؤيتهما ، ولكنك ربما سمعتهما يضحكان ويتداعبان . انهما ان اسرعا فسوف يعبر العملاق بهما النهر وحينئذ يستطيعان ان يجدا الرجل ذا المصباح ويرسلاه الينا .

اسرعت المرأة بقدر ما استطاعت ، وبدا على الحية كما بدا على الزنبقة أنهما ينتظران عودة العجوز والمصباح بفارغ الصبر . غير ان شعاع الشمس الغاربة كان قد كسا للاسف اعلى قمم الاشجار في الدغل الكثيف ، كما تمددت الظلال الطويلة فوق البحيرة والدغل ، تململت الحية نافدة الصبر ، وانهمرت دموع الزنبقة .

تلفتت الحية حولها في هذه المحنة ، فقد خشيت ان تغيب الشمس بين لحظة واخرى ، وينفذ الفساد الى الدائرة السحرية فيعاجل الشاب الجميل بغير ابطاء ـ واخيرا لمحت الصقر يخفق ريشه الاحمر القرمزي في الاعالي ويتلقى بصدره اشعة الشمس الاخيرة ، اخذت تمني نفسها فرحة بالفأل الطيب ، ولم تخدع نفسها ، فما هي الا لحظات قصيرة حتى ظهر الرجل ذو المصباح يتقدم عابرا البحيرة ، وكأنه يتزحلق على الجليد.

لم تغير الحية من موضعها ، ولكن الزنبقة نهضت واقفة ونادت عليه قائلة :

اي روح طيب بعث بك في هذه اللحظة التي نتلمسك فيها ونحتاج اليك اشد الاحتياج ؟

اجابها العجوز قائلا : ان روح مصباحي هو الذي يدفعني ، والصقر هو الذي يسوقني الى هذا المكان ، حين يحتاجني احد يتلألأ المصباح ، واتلفت حولي افتش في الاجواء المحيطة بي عن علامة ، فاذا بطائر او شهاب يدلني على الاتجاه الذي يكون علي ان اسير فيه ، اهدئي يا اجمل الفتيات ، لست ادري ان كان في مقدوري ان اساعدك ، ان الانسان بمفرده لا يملك العون ، ولكن يملكه من يتحد مع غيره في الساعة المناسبة. لندع الامر يسير في مجراه ، ولنتذرع بالرجاء ، « حافظي على ان تبقي دائرتك مغلقة . » قال العجوز ذلك موجها كلامه الى الحية ، وجلس على مرتفع من الارض بجانبها وسلط نور مصباحه على الجسد الميت . ثم قال موجها حديثة للفتيات :

احضرن كذلك طائر الكناريا وضعنه في الدائرة ! « فعلت الفتيات كما قال العجوز ، فتناولن الجثمان الصغير من السلة التي تركتها العجوز في مكانها .

كانت الشمس في اثناء ذلك قد افلت ، وحين تراكم الظلام لم تبدأ الحية ومصباح الرجل في ارسال ضوئهما كل على طريقته فحسب، بل ان قناع الزنبقة راح يشع نورا رقيقا كأنه شفق ناعم لون وجنتيها الشاحبتين وثوبها الناصع بقتنة ساحرة لا سبيل الى وصفها . تأمل الحاضرون بعضهم في صمت ، وهدأ الرجاء اليقين من الهم واللوعة .

من اجل ذلك كان مما يدعو الى السرور ان تظهر المرأة العجوز في صحبة الشعلتين المضيئتين ،اللتين بدا عليهما انهما قد بذرا من ضوئهما تبذيرا شديدا حقا ، اذ ظهرا نحيلتين شديدتي النحول ، وان لم يزدهما ذلك الا لطفا في معاملة الامير وبقية النساء ، اخذا يتكلمان في ثقة تامة ، وبصوت معبر عن امور عادية ، وبدا عليهما بوجه خاص انهما مأخوذان بالسحر الذي كان ينشره القناع المنير على الزنبقة وصاحباتها ، خفضت النساء ابصارهن في تواضع ، وزادهن اطراء الجمال جمالا .

كان الجميع مغتبطين هادئين ما خلا العجوز : فعلى الرغم من تأكيد زوجها لها ، بأن يدها لا يمكن ان تتقلص اكثر مما هي عليه طالما كان ضوء مصباحه يسطع عليها ، فقد راحت تكرر وتعيد زاعمة ان الحال لو استمر على ما هو عليه لاختفى هذا العضو النبيل قبل ان ينتصف الليل .

انصت العجوز ذو المصباح الى حديث النورين التائهين في انتباه وسرة ان شغل الزنبقة عن همها واعاد اليها مرحها . كان الليل قد انتصف حقا ، ولم يدر احد كيف تطلع العجوز الى النجوم وشرع يقول :

« ها هي الساعة السعيدة تجمعنا ، فليقم كل بعمله ، وليؤد واجبه ، وسوف تذيب السعادة المشتركة الآلام واحدا واحدا ، كما يلتهم الشقاء المشترك الافراح كلا على حدة . »

بعد ان انتهى العجوز من القاء هذه الكلمات سمع خليط عجيب من الاصوات ، فقد اخذ كل واحد من الحاضرين يكلم نفسه ، وينطق بصوت عال بما عليه ان يفعل ، ما خلا الفتيات الثلاث فقد خيم عليهن الصمت ، كانت احداهن قد غلب عليها النوم بجانب القيثارة ، والاخرى بجانب المظلة ، والثالثة بجوار الكرسي ، ولم يكن لاحد أن يلومهن ، فقد كان الوقت متأخرا ، اما الصبيان المشتعلان فبعد ان غمرا الجميع بمظاهر الادب العابرة ، التي لم يجرما الخادمات ايضا منها ، فقد انصرفا اخيرا بكليتهما الى الزنبقة وحدها التي كانت اروعهن جمالا .

قال العجوز للصقر : امسك بالمرآة ، وبشعاع الشمس الاول انر النائمات وايقظهن بنور مرتد من الاعالي !

بدأت الحية تحرك نفسها ، ففكت الدائرة المغلقة وراحت تزحف زحفا بطيئا في حلقات كبيرة نحو النهر . تبعها النوران التائهان في احتفال ، حتى ليحسبهما الانسان اكثر الشعلات جدا ووقارا ، وامسكت العجوز وزوجها بالسلة التي لم يكد احد حتى الان يلاحظ النور الرقيق المنبعث منها ، وتناولاها من طرفيها ، وهي تزداد بين ايديهما بهاء ، وتكبر شيئا فشيئا ، ورفعا جثمان الشاب ، ومدداه فيها ووضعا طائر الكناريا على صدره ، ارتفعت السلة في الفضاء واخذت ترف فوق رأس العجوز التي سارت في اثر النورين التائهين ، فتناولت الزنبقة الحسناء الكلب فوضعته على ذراعيها . وتبعت العجوز ، اما الرجل ذو المصباح فسار في المؤخرة من الموكب ، وغمرت هذه الاضواء كلها الناحية فنورتها بنور ساطع غريب ، ولكن لم يقل عجب هذه الجماعة من المسافرين عندما وصلت الى النهر فأبصرت قوسا رائعا يمتد فوقه ، عبدت الحية به طريقا مضيئا .

واذا كانوا قد اعجبوا في مطلع النهار بالاحجار الثمينة الشفافةالتي بدا كأن الجسر صنع منها ، فقد تملكتهم الدهشة في الليل وهم يتأملون روعتها الباهرة السناء .

حف الجانب العلوي من الدائرة الساطعة بالسماء المعتمة ، اما في ناحيتها السفلى فقد اختلجت اشعة متدفقة بالحيوية في اتجاه المركز فأوضحت الثبات المتحرك للبناء .

عبر الموكب في بطء على الجسر ، واطل المراكبي من كوخه على البعد يتأمل في دهشة الدائرة الساطعة والانوار العجيبة التي تعبرها.

لم يكد الموكب يصل الى الضفة الاخرى من النهر حتى بدأ القوس يتأرجح على طريقته وينعطف انعطاف الامواج ناحية النهر ، وسرعان ما زحفت الحية على اليابسة ، وهبطت السلة على الارض فعادت الحية فطوقتها بدائرتها ، انحنى العجوز امامها وقال : « ماذا قررت ان تصنعي » ؟ فأجابت الحية : « ان اضحي بنفسي قبل ان يضحي بي ، عدني بأنك لن تترك حجرا واحدا على اليابسة . »

وعد العجوز بما قالت ثم خاطب الزنبقة الحسناء قائلا : « المسي الحية بيسراك وحبيبك بيمناك .

ركعت الزنبقة ومدت يدها فلمست الحية والجثمان ، الذي بدا عليه انه ينتقل في نفس اللحظة الى الحياة ، ثم اخذ يتحرك في السنة، بل انتصب في جلسته وجلس ، ارادت الزنبقة ان تعانقه ولكن العجوز منعها من ذلك ، واتجه الى الشاب يعينه على النهوض ، واخذ بيده فخرج من السلة ومن الدائرة .

نهض الشاب واقفا ، ورف طائر الكناريا فوق كتفه ، كانت الحياة قد دبت فيهما ، ولكن الروح لم تكن قد عادت اليهما، كان الصديق الجميل مفتوح العينين ، ولكنه لم يكن يرى شيئا ، او كان يبدو عليه على الاقل كانه ينظر حوله بغير ان يشارك في شيء مما يرى ، ولم يكد عجب الحاضرين من ذلك يخف قليلا حتى لاحظوا التغير العجيب الذي طرأ على الحية . كان جسدها الجميل النحيل قد تفتت الى الاف والاف من الاحجار الثمينة المضيئة ، لم تحترس العجوز التي ارادت ان تمد يدها الى السلة فاصطدمت بها ، ولم يعد احد يرى شيئا من بقية الحية ،فلم يبق منها غير دائرة جميلة من الاحجار البراقة ملقاة بين الاعشاب .

شرع العجوز على الفور في جمع الاحجار في السلة ، وكان على زوجته ان تساعده في ذلك . حملا السلة الى الشاطىء ، فوضعاها في مكان مرتفع ، وافرغ الرجل الحمل كله في النهر ، ولم يبرأ من معارضة الزنبقة الحسناء وزوجته اللتين ودتا لو تستطيعان اختيار شيء منها لانفسهما . سبحت الاحجار مع الامواج كانها نجوم لامعة براقة ، ولم يكن احد يستطيع ان يتبين ان كانت قد ضاعت مع التيار او سقطت في قاع النهر .

قال العجوز في خشوع موجها حديثه للنورين التائهين : سادتي ! الان اريد ان اريكما الطريق وافتح لكما الدرب ، ولكنكما تسديان الينا خدمة عظيمة ان فتحتما لنا بوابة المعبد المقدس ، التي يتحتم علينا الان ان ندخل منها ، والتي لا يستطيع احد غيركما ان يفتحها .

انحنى النوران التائهان انحناءة مهذبة ولبثا في مكانهما . وتقدم العجوز ذو المصباح الى الصخر فانفتح له . لحق الشاب به على الفور في حركة آلية ، وبقيت الزنبقة على بعد قليل منه هادئة غير واثقة من نفسها ، اما العجوز فلم يشأ ان تتخلف ومدت يدها لكي يتسنى للنور المنبعث من مصباح زوجها ان يقع عليها . وسار النوران التائهان في مؤخرة الموكب ، ومالت اطراف شعلتيهما الى بعضها فبدا عليها كانهما مستغرقان في الحديث .

لم يكن قد طال بهم السير حين الفى الموكب نفسه امام باب عظيم صنع من الحديد ، واغلق جناحاه بقفل ذهبي . نادى العجوز على النورين التائهين ، ولم يكونا في حاجة لمن يدعوهما الى العمل ، فقد اقبلا على القفل والمزلاج يلتهمانهما بشعلتهما ذات الاطراف الحادة .

رن صوت المعدن عاليا حين انفتحت البوابات في سرعة مذهلة ، وظهرت تماثيل الملوك ذات الجلال وقد غمرتها الانوار التي سقطت عليها. احنى الحاضرون رؤوسهم امام الملوك الاجلاء ولم يقصر النوران التائهان ايضا في تقديم انحناءاتهما العجيبة المثنية .

مرت فترة من السكون قبل ان يسأل الملك الذهبي :

ـ من اين تأتون ؟

اجاب العجوز : من العالم ! ...

سأل الملك الفضي : والى اين تذهبون ؟

فقال العجوز : الى العالم !

سأل الملك الحديدي : ماذا تطلبون عندنا ؟

اجاب العجوز : « ان نكون في صحبتكم » .

اراد الملك المختلط ان يبدأ الكلام حين سمع الملك الذهبي يقول للنورين التائهين اللذين اقتربا منه اقترابا شديدا : « ابتعدا عني ! ان ذهبي لم يخلق لحلوقكم ! »

فما كان منهما الا ان اتجها ناحية الملك الذهبي والتصقا به والتمع رداؤه بالنور الاصفر المنعكس منهما التماعا جميلا وقال : مرحبا بكما ، وان كنت لا استطيع ان اطعمكما ، اشبعا بطونكما عند غيري ثم احضرا لي نوركما ! »

ابتعدا عنه وتسللا مختفيين من جانب الملك الحديدي ، الذي لم يبد عليه انه انتبه اليهما وذهبا الى الملك المركب من معادن مختلطة ، هتف بهما الملك في صوت متلعثم :

ـ من الذي سيحكم العالم ؟

فاجاب العجوز قائلا :

ـ الذي يقف على قدميه .

قال الملك المختلط : ـ انا هو الحاكم !

قال العجوز : سوف يتضح الامر عما قريب ، لان الاوان قد آن .

القت الزنبقة الحسناء بنفسها على العجوز فطوقت رقبته بذراعيها وقبلته قبلة صادقة حارة ، قالت له : ـ يا ابي المقدس ، الف مرة اشكرك ، فها انا اسمع الكلمة الموحية للمرة الثالثة .

ولم تكد تنتهي من حديثها حتى وجدت نفسها تزداد تشبثا بالعجوز، فقد بدت الارض تهتز من تحتها ، والتحم العجوز والشاب ببعضهما ، اما النوران التائهان المتدفقان حركة فلم يفطنا الى شيء .

احس الحاضرون احساسا واضحا بان المعبد يتحرك كله كسفينة تبتعد رويدا رويدا عن الميناء حين تفك مراسيها ، وبدا كان اعماق الارض تنفتح امامه ليشق طريقه فيها .

لم يصطدم بشيء ، لم يقف شيء في طريقه .

مرت لحظات قليلة خيل فيها للحاضرين كان رذاذا خفيفا يتقطر من كوة في القبة ، ضم العجوز الزنبقة الحسناء اليه وقال لها : « نحن الان تحت النهر ، ونوشك ان نبلغ الهدف » انقضت لحظات حسبوا فيها انهم ثابتون في مكانهم ، ولكنهم كانوا مخطئين ، فقد كان المعبد يرتفع الى اعلى .

سمعوا ضجة غريبة فوقهم ، وراحت الواح وعروق من الخشب تنهال على رؤوسهم في صخب واختلاط من كوة القبة . قفزت الزنبقة والعجوز جانبا ، وتشبث الرجل ذو المصباح بالشاب ولم يبرح مكانه. سقط كوخ المراكبي الصغير ـ فقد كان هذا الكوخ هو ما اقتلعه المعبد من الارض وحمله معه عند ارتفاعه ـ شيئا فشيئا .

تعالت صيحات النساء ، وارتج المعبد كالسفينة التي ترتطم باليابسة ، اخذت النساء تهيم في الغسق طائفات حول الكوخ ، كان الباب مغلقا ، ولم يستجب احد لطرقاتهن ، اشتد طرقهن عنفا ، ولم يقل عجبهن حين انتهى الى سمعهن رنين ينبعث من الخشب ، كان الكوخ قد تحول بفضل المصباح المحبوس فيه الى فضة تتلألأ من الداخل الى الخارج.

ولم يمض وقت طويل حتى تحول شكل الكوخ نفسه ، فقد فارق المعدن الكريه الصور العارضة للالواح والاعمدة والقوائم الخشبية ، وتمدد فصار مبنى رائعا من المعدن المطروق . وهكذا نشأ معبد رائع صغير في وسط المعبد الكبير ، او ان شئنا فمذبح جدير بجلال المعبد .

ارتقى الشاب النبيل درجات سلم يرتفع من الداخل ، وانار له الرجل ذو المصباح الطريق وبدا كان رجلا اخر يساعده على الصعود ، ويرتدي ثوبا ناصعا قصيرا ويحمل في يده مجدافا من الفضة ، عرف فيه الحاضرون المراكبي ، ذلك الساكن القديم للكوخ المتحول .

صعدت الزنبقة الحسناء الدرجات المتطرفة التي تؤدي من المعبد الى المذبح ، وكان ما يزال عليها ان تظل بعيدة عن حبيبها . وهتفت العجوز التي كانت يدها تتضاءل شيئا فشيئا ما بقي المصباح في مخبئه : هل كتب علي ان ابقى شقية ؟ اليست هناك معجزة تنقذ يدي من بين هذه المعجزات الكثيرة ؟ اشار زوجها للباب المفتوح وقال :

ـ انظري ! ان النهار يطلع ، اسرعي واستحمي في النهر ! ..

صاحت قائلة : يا لها من نصيحة ! اذن فقد قدر لي ان اصبح سوداء فاحمة السواد وان اختفي تماما من الوجود ، انني لم اقم بسداد ديني ! .

قال العجوز : « اذهبي واتبعيني . كل الديون قد سددت . »

هرولت العجوز مسرعة ، ولاح نور الشمس المشرقة في نفس اللحظة

يجلل هامة القبة ، تقدم العجوز فوقف بين الشاب والعذراء ونـــادى بصوت مرتفع .

ـ ثلاثة يحكمون الارض : الحكمة ، والمظهر ، والسلطان .

انتصب الملك الذهبي عند سماعه الكلمة الاولى ، والملك الفضي عند سماعه الثانية ، وسمع الملك الحديدي الكلمة الثالثة فنهض يتحامل على نفسه في بطء .

بينما جلس الملك المختلط فجأة بطريقة خلت من كل حذق حتى ان كل من رآه لم يملك ان يمنع نفسه من الضحك ، ذلك انه لم يكن يجلس ، ولم يكن يرقد ، ولم يكن يستند الى شيء بل انهار منكمشـــا على نفسه .

تنحى النوران التائهان جانبا ، وكانا طوال الوقت عاكفين عليـــه مشغولين به .

وبالرغم من شحوبهما في ضوء المصباح ، فقد بدت شعلتهما ناضرة حية ، كانت السنتهما الحادة المدببة قد امتدت في براعة الى العـروق الذهبية المنتشرة في التمثال الهائل فلعقتها ، واوغلت في صميمها،بقيت الفراغات غير المنتظمة الناجمة عن ذلك مفتوحة بعض الوقت ، كمـا بقي الشكل العام على هيئته السابقة . حتى اذا التهمت الالسنة الحـادة العروق المتناهية في الدقة انهار التمثال كله مرة وحدة ، كان انهيـــاره مع الاسف في تلك المواضع التي تبقى عادة على حالها عند الجلوس ، اما المفاصل ، التي كان ينتظر أن تنثني فقد بقيت على العكس من ذلك متصلبة . كل من لم يقو على الضحك اضطر الى ان يحول عينيه بعيدا، فقد كان مما يؤذي العين ان ترى شيئا وسطا بين الشكل المنسق ، والكومة المتكورة .

هبط الرجل ذو المصباح درجات المذبح وتقدم الشاب الجميـل الذي ما لبث يتطلع جامد العينين امامه متجها بها الى الملك الحديدي.

كان هناك سيف ملقى عند قدمي الامير الجبار في غمده الحديدي، فمد يده وتحزم به . صاح به الملك الجبار : ضع السيف في يسراك، ودع يمناك حرة طليقة ! » .

ثم ذهب الى الملك الفضي الذي ادنى صولجانه من الشاب،فقبض عليه بيسراه وقال له الملك في صوت عذب : « ارع الاغنام ! » .

فلما جاء الى الملك الذهبي مد هذا يده الابوية يبارك بها الشاب ويضع على رأسه اكليلا من اوراق شجر البلوط وقال : « اعرف اعلى الموجودات ! »

كان العجوز اثناء هذه الجولة يراقب الشاب مراقبة دقيقة، فما ان تحزم السيف حتى ارتفع صدره ، وتحرك ذراعاه ، وازدادت خطواته صلابة ، وما ان امسك الصولجان بيده حتى بدا كأن قوته قد وهنت، وكأن سحرا لا سبيل الى وصفه قد زادها مع ذلك بأسا وقوة ، حتى اذا زان اكليل البلوط خصلات شعره ، فاضت الحيوية على مـــلامح وجهه ، ولمعت عيناه بروحانية لا يمكن التعبير عنها ، وكانت اول كلمـــة نطق بها فمه « زنبقة ! يا حبيبتي الزنبقة ! » هتف بهذه الكلمات وهو يصعد الدرجات الفضية مسرعا الى لقائها ، فقد كانت قد تابعت رحلتـــه من شرفة المذبح : « ايتها الزنبقة يا حبيبتي ! ماذا يستطيع الرجـــل الذي انعمت عليه الطبيعة بكل شيء ان يشتهي لنفسه اعذب من البراءة والانعطاف الوديع اللذين يحتويهما صدرك ؟ » ثم اتجه الى العجـــوز وتأمل التماثيل الثلاثة المقدسة واستطرد يقول : آه يا صديقي الرائعة، ومأمونة هي مملكة ابائنا ، ولكنك نسيت القوة الرابعة ، التي هي اسبق منها جميعا في حكم العالم ، واعم وابعد يقينا : « قوة الحب » . قال ذلك والقى بنفسه على الحسناء فطوق رقبتها ، كانت قد نزعت القناع والقته بعيدا عنها ، ولونت خديها حمرة فاتنة باقية الجمال .

اجاب العجوز مبتسما : « الحب لا يحكم ، بل يربي ، وهذا اكثر.»

لم ينتبه الحاضرون في غمرة الاحتفال والسعادة والنشوة الـــى وضوح النهار ، فاذا بابصارهم تقع ـ عبر الباب المفتوح على اشيـــاء لم يتوقعوها . رأوا فناء عظيما تحيط به الاعمدة وفي نهايته جسر طويل رائع البهاء يمتد على النهر باقواسه الكثيرة ، وعلى جانبيه ممـــران يصطفان بالاعمدة اعدا لنزهة العابرين فوقه اعدادا مريحا اخاذا وكـم من الوف منهم دأبوا على العبور عليه جيئة وذهابا . كان الطريق الطويل في منتصفه يمتلىء بالقطعان والبغال ، بالخيالة والعربات التي ازدحمت على جانبيه ، وراحت تنساب انسياب النهر هنا وهناك بغير ان تعـوق بعضها البعض عن السير . كان يبدو عليهم جميعا كأنهم مأخوذون بالروعة والنزق من حولهم ، واسعد الملك الجديد وزوجته رؤية الحياة والنشاط تدب في هذا الشعب العظيم بمقدار ما اسعدهما حبهما المتبادل .

قال الرجل ذو المصباح : « اكرم ذكرى الحية ! انك مدين لهـــا بالحياة ، كما تدين شعوبك لها بالجسر الذي جعل من هذين الشاطئين المتجاورين بلدين تدب فيهما الحياة ، وربط بينهما . تلك الاحجـــار الثمينة التي تسبح براقة على النهر هي بقايا جسدها الذي ضحت به ، وهي اعمدة هذا الجسر الرائع ، لقد بني عليها وسيحتفظ ببنائـــه فـــوقها . »

اراد الحاضرون ان يسألوه ان يكشف لهم هذا السر العجيب حين دلفت اربع فتيات حسان من باب المعبد .

فعرف الحاضرون فيهن على رفيقات الزنبقة من القيثارة والمظلـــة والكرسي ، اما الحسناء الرابعة المجهولة التي فاقت الثلاث جمالا ، فقد دخلت من الباب بسرعة وهي تمرح بينهن مرحا اخويا ، ثم صعـدت السلالم الفضية .

قال الرجل ذو المصباح للحسناء : « هل ستصدقينني في المستقبل، يا زوجتي العزيزة ؟ طوبى لك ولكل مخلوق يستحم في هذا الصباح في ماء النهـر ! »

اقبلت العجوز التي ارتد اليها شبابها وجمالها ، والتي لم يبق لخلقتها السابقة اي اثر على الرجل ذي المصباح فضمته بذراعين شابتين متدفقتين بالحياة ، فتقبل عناقها مسرورا وقال لها وهو يبتسم : ان رأيت انني عجوز بالنسبة لك ، ففي استطاعتك ان تختاري لك زوجـــا اخر ، لن يصح من اليوم زواج الا اذا انعقدت اواصره من جديد . »

اجابت قائلة : « الا تدري انك انت ايضا اصبحت شابا ؟ يسرني ان ابدو لعينيك الشابتين في مظهر الفتى المقدام ، وها انا آخذ يدك من جديد ، سعيدا بأن اعيش معك الالف عام المقبلة . »

رحبت الملكة بصديقتها الجديدة ، وهبطت معها درجات المذبح ، تصحبها رفيقاتها الاخر ، بينما راح الملك الذي توسط الرجلين ، يتأمـل مواكب الشعب المصطخبة في انتباه .

ولكن فرحته لم تدم طويلا ، فقد رأى ما بعث الضجر في نفسه ، كان العملاق الكبير ، الذي بدا عليه انه لم يفق من نوم الصباح تماما ،

قـــريبا

كامو والتمرد

بقلم
روبير دولوبيه

ترجمة الدكتور سهيل ادريس

طبعة جديدة من كتاب يدرس فلسفة العبث والتمرد عند احد كبار مفكري هذا العصر

منشورات دار الآداب

يتمايل قادما الى الجسر ، وينشر الاضطراب العظيم من حوله ، كان قد نهض في سكرة النوم كعادته يريد ان يستحم في خليج النهر الذي يعرفه، فلم يجد في مكانهما الا اليابسة ، ومضى يخبط على الرصيف العريض، ومع انه مرق بين البشر والبهائم بلا حذق او تدبر ، فقد ادهش الجميع وجوده وان لم يشعر به احد ، فلما انعكست الشمس على عينيه ورفع يديه ليمسحهما بهما ، اخذ ظل قبضتيه الجبار يتقلب هنا وهناك في قوة واضطراب بين الجماهير حتى تدافعت حشود الناس والحيوانات ، فاصطدمت ببعضها ، واصابها الاذى وتعرضت لخطر السقوط في النهر.

عندما رأى الملك هذا الفعل البشع امتدت يده بحركة غير مقصودة لتقبض على السيف ، ثم ما لبث ان تروى واخذ ينظر الى صولجانه ثم الى المصباح والمجداف في يد رفيقيه . قال الرجل ذو المصباح : « انني احدس بما يدور في خاطرك ، ولكننا وكل ما في طاقتنا من قوة عاجزون عن مواجهة هذا العاجز . تذرع بالهدوء ! فهذه هي المرة الاخيرة التي يؤذينا فيها ومن حسن الحظ ان ظله قد ارتد عنا » .

اقترب العملاق في اثناء ذلك اقترابا شديدا ، واصابه الذهول مما رآه بعينين مفتوحتين فترك يديه تسقطان ، ولم يعد يؤذي احدا ، واتجه مدهوشا الى الفناء الامامي . اتجه مباشرة نحو باب المعبد ، واذا به يجمد فجأة في منتصف الفناء ويتصلب في مكانه تمثالا ضخما هائلا من الحجر الاحمر اللامع ، يشير ظله الى الساعات التي رصعت من حوله في دائرة على الارض ، لا في شكل اعداد بل على هيئة صور نبيلة دالة المعاني .

لم تكن فرحة الملك قليلة وهو يشاهد ظل العملاق الهائل يتجه وجهة نائية ، ولم يكن عجب الملكة قليلا وهي تصعد في ابهى زينتها الى المذبح ، والعذارى في رفقتها ، فاذا بها تلمح التمثال الغريب الذي كاد يحجب الرؤية من المعبد الى الجسر .

كان الشعب في اثناء ذلك قد تدافع نحو العملاق الساكن في مكانه ، فاحاط به من كل جانب واخذ يتطلع مدهوشا الى التحول الذي طرأ عليه ومن هناك اتجهت الجماهير بابصارها الى المعبد الذي كان يبدو عليها كأنها تراه لاول مرة ، وتدفقت مندفعة نحو الباب .

في هذه اللحظة رف الصقر الذي يحمل المرآة عاليا فوق المعبد ، والتقط نور الشمس والقى به فوق الجماعة الواقفة فوق المذبح . ظهر الملك والملكة ورفاقهما في غبش الضوء المنتشر في قبو المعبد في هالة من النور السماوي ، وخر الشعب ساجدا على وجهه ، وحين افاقت الجماهير ونهضت ، كأن الملك تتبعه حاشيته قد هبط درجات المذبح في طريقه الى قصره عابرا ردهات خفية ، وتفرق الشعب في جنبات المعبد لكي يرضي شهوته الى التطلع .

اخذ يتأمل الملوك الثلاثة المنتصبين في وقفتهم بعيون ملؤها الدهشة والاجلال ، ولكن حبه للاستطلاع جعله يتوق الى معرفة ذلك الشيء المتكور تحت السجادة في الفجوة الرابعة ، وسواء ما كان ذلك الشيء ، فقد شاء التواضع العطوف ان يبسط على الملك المنهار غطاء باهر الجمال ، لا تملك عين ان تنفذ منه ، ولا تجرؤ يد ان تكشف عنه.

لم يكن لتأمل الشعب او لاعجابه ان يقف عند حد ، ولا للجماهير المتدفقة المتزاحمة ان تنجو من الاختناق في المعبد لو لم يتحول انتباهها من جديد الى الميدان الكبير .

رنت قطع ذهبية على الالواح الرمرية على غير انتظار، وكأنما سقطت من الهواء ، واندفع المتجولون القريبون منها يتزاحمون عليها ليفوزوا بها ، وتكررت هذه المعجزة مرة فمرة ، هنا وهناك . ويفهم القارىء بلا شك ان النورين التائهين قد سمحا لانفسهما قبل ان ينصرفا بشيء من المزاح فراحا في مراح يبددان الذهب المتناثر من اعضاء الملك المنهار . ويتدافع ويكاد يمزق بعضه بعضا . وفي نهاية المطاف تفرق شملهما ، ومضى في طريقه ، ولم يزل الجسر الى يومنا هذا يعج بالسائحين ، ولم يزل المعبد اكثر الاماكن على وجه الارض عمرانا بالزائرين . »

عبدالغفار مكاوي

تعليق على الحكاية

سجل صيف عام ١٧٩٥ حادثا نادرا في تاريخ الادب الالماني ، بل لعله من اندرها في تاريخ الاداب العالمية بوجه عام ، ونعني به انعقاد اواصر الصداقة الوطيدة بين الشاعرين العظيمين جوته وشيللر . كان شيللر في ذلك الحين قد شرع في اعداد مجلته الشهرية المعروفة باسم « الهورن » (١) ، وكان من الطبيعي أن يطلب من جوته ان يساهم في تحريرها ، فلم يتردد الصديق . وكان في نية شيللر ان ينشر في اعدادها الاولى بعض مقالاته الفلسفية ومقالات صديقه فيلهلم فون همبولت . ولكن كان على المجلة التي تتجه الى دائرة متسعة من المثقفين الا تقتصر على هذا اللون الجاف من الوان الكتابة ، وان تقدم من القصص ما يضمن لها الذيوع والانتشار . ووعد جوته في اول الامر ان يقدم قصة قصيرة ، ما لبثت أن تحولت الى مجموعة من القصص ، في اطار روائي طويل .

كان جوته في ذلك الحين مشغولا بأعداد الجزء الاول من روايته الكبرى فيلهلم ميستر ، وهو المعروف « بسنوات التعلم » ، كما كان في الوقت نفسه منكبا على اتمام دراساته عن « نظرية الالوان » ، ووضع الخطوط الرئيسية في ابحاثه عن العظام . وكان اشرافه على مسرح فيمار يكلفه الكثير من وقته وجهده . فلم يكن هناك مفر من ان تظل الحكايات القصيرة التي وعد بتقديمها لمجلة « الهورن » عملا جانبيا الى جانب الاعمال الاخرى التي تشغله ، وان لم ينف هذا انه اقبل على كتابتها في شغف ولذة هما طابع كل قصاص اصيل . وكان ان تجمعت كل هذه الاقاصيص في شكل رواية قصيرة على هيئة مسامرات سماها بالفعل « مسامرات مهاجرين المان » ووضع الحكاية التي نعرفها في نهايتها .

والمسامرات ـ ان جوته لا يترفع عن المشاركة في ادب التسلية الذي كان منتشرا في عصره ، بل يجد في ممارسة القصة والارتفاع بشكلها والسمو بغايتها واجبا من امتع الواجبات ـ مجموعة من الاحاديث تدور حول اسرة من الاسر النبيلة هاجرت الى احد املاكها النائية ، فرارا من جيوش نابليون الزاحفة . ولسنا هنا بصدد الحديث عن هذه المسامرات (٢) ، فلهذا موضع اخر . ويكفي ان نشير الى انها تبدأ بمناقشات حادة حول الثورة الفرنسية تدور بين متعصب لها وساخط عليها ، فيحاول القسيس العجوز الذي يرافق العائلة ، مدفوعا من البارونة الحكيمة ربة الاسرة ، ان يعيد الاتزان والبهجة الى الحاضرين بحكاياته ، وان يبعد بهم عن القضايا الوقتية ليوجههم الى قضايا الانسان الخالدة . ان العجوز يسلي الحاضرين ، وبخاصة الشباب منهم بحكاياته ، لا بالمعنى الشائع لكلمة التسلية ، من تشتيت البال وصرف الانتباه عن قضايا الساعة الملحة ، ولكن ليصرفهم عن المنازعات السياسية العقيمة والمسائل السطحية العابرة ، ليعدهم لما هو اعمق من مسائل الفكر والشعور . انه يضرب لهم المثل ـ وبخاصة في اقصوصة فردیناند الشاب الذي يكفر عن جريمة اختلاس اموال ابيه بالوفاء والتضحية ،

ـ التتمة على الصفحة ٤٩ ـ

(1) Die Horen

(٢) لعد مسامرات المهاجرين الالمان التي ظهرت في مجلة « الهورن» في عام ١٧٩٥ بداية فن القصة الالمانية القصيرة في القرن التاسع عشر . وليست اقاصيص جوته التالية هي وحدها التي تبدأ من هنا ، بل كذلك اقاصيص الرومانتيكيين ، انهم يقتفون اثره ، واذا بنا نرى فيلاند ينشر قصته « هيكسا ميرون روزنهيم (١٨٠٥) ، وارنيم « حديقة الشتاء » (١٨٠٩) ، وتيك « فانتازوس » وكثيرون غيرهم . واحب النماس الاقصوصة وعرفوا اهمية هذا الشكل الفني . واصبحت الحكاية التي سبق اليها « موزايوس » وجرى فيها على اسلوب عصر التنوير الذي ساد فيه سلطان العقل عملا من اعمال الخيال الخالص عند جوته . ومن هذا النبع الصافي اغترف شاعر الرومانتيكية الكبير نوفاليس (فريدرش فون هاردنبرج) .

الحكايــة

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٤٣ ـ

واقصوصة التاجر الايطالي العجوز وزوجته الشابة التي يطول غيـابه عنها فتبحث عن الحبيب والصديق في شخص محام شاب يدفعها بالصوم والصلاة ـ اي الى حد كبير باماتة الجسد ومجاهدته كما يقــول المتصوفة ـ الى ان تقهر نزواتها وتنتصر على ذاتها ـ اقول انه بهــذه الاقاصيص التي اخذ بعضها عن بوكاتشيو يضرب لهم المثل على الانسان الذي لا تقوى كارثة من الخارج ولا عاطفة من الداخل على أن تفقـده توازنه ، الانسان « الذي يحافظ دائما على المسلك الهادىء ، ويجــد نفسه على الدوام مدفوعا الى ان يعيش لغيره ، ويضحي بنفسه فــي سبيل الاخرين . »

وفي « الحكاية » التي يختم بها القسيس العجوز مسامراته نجـده يصف لنا تلك الحالة التي تفيض بالنعمة والسعادة والتي ما كان لهـذه الشخصيات العجيبة أن تصل اليها لو لم تتغلب واحدة منها (الحية) على نفسها وتضحي بذاتها في سبيل المجموع . انها تبني من جسدها جسرا مسحورا يصل الواقع بالمثال ، والحياة بالفن ، كما يربط عالم الشاب الملتهب بالحب والعذاب بعالم الزنبقة الفياض بالسعــــادة والتجانس والكمال . والقسيس بهذا يحاول ان يكشف عن جــوهر الانسان ، كما يطالبه في الوقت نفسه بان يكبح جماح غرائزه ، ويعرف حدوده فلا يتعداها .

في اقصوصتي فرديناند والتاجر العجوز يحرص الراوي علــى التزام الشكل ، اما في الحكاية فتصبح طريقته في القصة ، وقــد تحررت من قيود الواقع ، لعبا خالصا وصورة خالصة ـ شيئا يتعـذر ان نجد له نظيرا في فنون الكتابة ، اذ هو اقرب ما يكون الى جــوهر الموسيقــى .

لقد كان جوته في ذلك الحين يقرأ كتابات شيللر الفلسفية ،ويرى كيف يحاول الصديق ان يتغلب على اختلاط الغرائز وفساد العصر عن طريق الفن والجمال . ولعله قد تذكر كلمة صديقه المشهورة التــي وردت في رسائله الفلسفية عن التربية الجمالية للانسان (الرسالــة الخامسة عشرة) : « لا يكون الانسان انسانا بكليته الا حــين يلعب » . ولكنه رأى كذلك كيف ترك الصديق ارض الواقع وحلق بجناحيه فــي مملكة المثال العالية ، وكلما ازداد تحليقه تعرض لاخطار الحمــــاس والخطابية . ولعله ايضا قد عرف مصداق التفرقة التي اقامها شيللر بين الشاعر العاطفي الذي يبدأ من الفكرة والمثل الاعلى وقد يعــود او لا يعود الى الواقع ـ وقد قصد بذلك نفسه ـ وبين الشاعر الساذج الذي يبدأ من المشاهد والمحسوس ليصعد درجة درجة الى الفكــرة والمثال ـ وقد قصد بذلك صاحبه ومنافسه جوته .

ولقد رفرفهذا بجناحيه في مملكة الخيال الحرة السعيدة ، ولكن حكايته بقيت مغزولة من نسيج الواقع ،ضاربة في جذور المحسوس .

***

ظلت الحكاية بالنسبة لمعاصري جوته وللاجيال التالية لغــزا مستورا ، وتتابعت تفسيرات المفسرين تحاول ان تتغلغل في اسرارها ، ولكنه هو نفسه لزم الصمت ، وآثر الكتمان فلم يحاول ان يفسر رموزها بكلمة واحدة . ولم تكد تظهر في مجلة « الهورن » في شهر أكتوبر عام ١٧٩٥ حتى بدأت محاولات المفسرين ولم تزل مستمرة الى اليوم* .

حاول نقاد القرن التاسع عشر ان يفسروها تفسيرات مجازية ، وان يجدوا في اشاراتها دلالات سياسية تقترن بالثورة الفرنسيــة وبشخصية نابليون . ورأى نقاد القرن العشرين فيها رموزا حاولوا في حذر ان يربطوها برموز اخرى تتكرر كثيرا في بقية اعمال جوته وفي فاوست الثانية بوجه خاص مثل النور والارض والماء والفيض والذهب ... الخ. وصرح جوته مرة لصديقه همبولت (في ٢٧ ـ ٥ ـ ١٧٩٦) بأن الحكاية ينبغي ان تؤخذ مأخذ الرمز لا مأخذ الاستعارة او المجاز ، غير أنه لم يبح بشيء عن طبيعة هذا الرمز .

والحقيقة أن كلمات القسيس العجوز الذي يروي الحكاية للاسرة المهاجرة تعبر عن هذا الرأي نفسه حين يقول : « انها تذكر بلا شــيء وبكل شيء » ، فالرمز هنا غني بالعلاقات التي تربطه بما يرمز اليــه ، ولكن العقل لا يستطيع ان يستنفد كنوزه . وربما كان جوته يحمل جزءا من المسئولية عن الحيرة التي يجد المفسر فيها نفسه بازاء هذا العمل .

انه يقول للامير اوجست فون جوتا في ٢١ ديسمبر ١٧٩٥ : « انني اجد في العمل الذي تمدحونه ، والذي لا يستطيع عصر اخر غير العصــر الذي نعيش فيه ان يطلق عليه أسم الحكاية ، كل دلائل التنبؤ .. ذلك لان المرء يرى بوضوح انها تتعلق بالماضي والحاضر والمستقبل .. علــى نحو ما سوف ترونه سموكم من تفسيري لها ، الذي لا يخطر لي مع ذلك ان اقدمه قبل ان ارى تسعا وتسعين مفسرا سبقوني اليه ! » ولقــد حاول ما يزيد عن هذا العدد ، وفي مقدمتهم شيللر ، ان يستوضحوه سرها ، ولكنه بقي صامتا . ومضى على موت شيللر اكثر من ربع قرن ، وحاول كارلايل ان يستفسر جوته عن الحكاية التي اعجب بها واعتبرهـا من اعمق اعماله واكثرها شاعرية ـ وما من شك في ان جوته كان يوده لو استطاع ان يجيب على سؤال الاديب الانجليزي الكبير الذي يحس انه يدين له بالكثير ، ولكنه لم يجد اكثر من قوله :

« انها قطعة فنية يندر ان تتكرر مرتين . »

لقد سبق لجوته أن تحدث بنفسه عن بعض اعماله ، وبخاصــة قصائده الغنائية ، فكان يذكر بعض ملابسات حياته التي ارتبطتبانشائها ، او يعيد مضمونها بعبارات نثرية او يحاول شرحها شرحا موضوعيـا . ولكنه كان يحرص دائما على الا يمس سر العمل الفني والا « يفسره » بالمعنى التحليلي المعروف من هذه الكلمة ، فكل تحليل يفسد العمـل الفني الذي ينبغي أن ينظر اليه دائما ككل ، والا كان الناقد كالطبيـب الذي يريد ان يشرح الجسد ليضع يده على سر الحياة فيه ، مع ان التشريح لا يكون الا لميت ، بينما القصيدة أو العمل الفني كائن عضــوي يفيض بالحياة !

واذن فليس عجيبا ان نراه يرفض تفسير الحكاية . ومن يدري ، فلعله لم يكن ليستطيع ان يقدم مثل هذا التفسير على الاطلاق .

أن الحكاية تروى بطريقة موضوعية جادة ، وتنتهي بخاتمة لا تخلو من الاحتفال . كلماتها الاولى تنقلنا الى عالم غريب ، يصفه لنا الراوية وكأننا نعرفه : هناك النهر ، والمراكبي ، والحية .. الخ. هذا العالــم الغريب يبدو كأنه عالم الاحلام . ليست هناك حدود تفصل بين الارواح والبشر والحيوانات والكائنات العضوية وغير العضوية . ان كل شيء يتداخل في كل شيء . ولكن هذا العالم غير المحدود لا يخلو مع ذلـك من القوانين والقيود : فهناك قانون يتحكم في النهر فلا يقبل ذهبـا ، وفي المراكبي فيعبر بالمسافرين في اتجاه واحد فحسب ، وفي العمـلاق فلا تكمن قوته الا في ظله ، وفي المصباح فيذيب كل جامد ، وفي الزنبقة فتميت بلمستها كل حي .. الخ. تقابل ذلك مثل هذه العبارات التــي تسود الحكاية باكملها : لقد آن الاوان . أن الخلاص قريب . الشقـاء رسول يسبق السعادة . النبوءة قد تحققت . ثم يأتي التحول العظيـم في النهاية ، فيتحد المتفرق ، ويطمئن اليائس ، ويتحرر المغلول ، وتنشأ حياة جديدة بعد ان تلتئم القوى المختلفة في تجانس وانسجام .

كل المشاهد والاحداث تؤدي الى هذا التحول السعيد ، في بناء واضح شديد الوضوح ، يظل يتعقد الى ان يصل الى هاوية الشقـاء (عندما تلمس الزنبقة حبيبها لمسة الموت ويفتش الجميع عن وسيلــة للخلاص) . ثم يبلغ ذروة السعادة (عندما يتحد الحبيبان وتتحول الحية الى جسر متألق يفضي الى المعبد الخالد) . ثلاثة دوافع تخلق التوتـر

* راجع في ذلك كله اعمال جوته الكاملة ، المجلد السادس ، طبعــة هامبورج ، والتعليق على الحكاية بقلم اريش ترونس .

وتحرك الحدث وتمضي به الى الامام : ما هو نوع الخلاص القريب ؟ ما هو مصير اليد التي اصبحت في سواد الفحم ؟ ماذا ستفعل الحية ؟

اما اليد السوداء فهي أظهر عناصر التوتر . ان العجوز قلقة على يدها ، تخشى ان يحل الموعد المضروب قبل ان يحمل لها الشفاء . اما الحية فهي تتوارى وراء الاحداث فترةمن الزمن ، ثم تظهر على مسرحها في شكل دائرة مسحورة تحيط بالجميع في انسجام ووئام ، وتحمل لهم النجاة والخلاص . انها تجعل من نفسها جسرا يربط بين الشاطئين البعيدين ، وما اشد افتخارها بذلك ! ولكنها سرعان ما تدرك ان فعلها هذا لا يكفي . انها تواجه الان صراعا بأطنا يطالبها بان تتخذ موقفا قد يكون فيه فناؤها . فهي لا تستطيع ان توحد بين المتفرقين وان تبقى مع ذلك على حالها . ليس امامها اذن الا ان تضحي بنفسها ، وان تصبح شيئا اخر لا حياة فيه . فهل هي مقدمة على هذه التضحية ؟

ان الحكاية البهيجة ، ابنة الخيال الخالص ، تفسح المجال لموقف اخلاقي قد يكون من الصعب علينا ان نتوقعه في هذا المقام . ولكننا سنتبين في النهاية ان تضحية الحية ما هي الا عنصر من عناصر الخلاص الشامل ، وان مشكلة اليد المهددة بالزوال ستجد الحل الطبيعي لها من خلال التحول الاجمالي الذي يبشر الجميع بالنجاة . وهكذا يجد كل شيء مكانه المرسوم ، ويرتبط اصغر الاشياء باعظمها شانا ، في وحدة منسجمة رائعة الانسجام . ما من عنصر يمكن الاستغناء عنه ، ولا من حدث يمكن اغفاله . فلا بد للحية من ان تضيء المعبد ، وان تلتهم الذهب ، لكي تتمكن الزنبقة من الاجتماع بالملوك في معبدهم المقدس . ولا غنى لها في سبيل ذلك عن الانوار النائمة التي تتولى عنها التهام الذهب . ولا بد لهذه الانوار النائمة بدورها من عبور النهر . فكل حدث يفترض الحدث الذي يليه ، حتى اذا قام كلبدوره ـ حتىالانوار العابثة ظهر انها لا تخلو من طيبة القلب ! ـ واتحد الجميع في نهاية الامر ، زال القانون القديم ، وغمرت الجميع حالة من السعادة الخالصة ، لا وجود لها الا في الحكايات والاحلام والاساطير .

كل الاحداث التي تصفها الحكاية تظهر في صور حية بهيجة الالوان . فالصقر الذي يرف في الهواء تنعكس عليه اشعة الشمس الغاربة فتكسوه بلون قرمزي ، والجسر يشع في ظلمة الليل كأنه عقد متألق من النجوم ، وحركة المعبد والشخصيات تتم في مكان شفاف منسوج بخيوط الاحلام . هذه الصور والشخصيات جميعا يغمرها « النور المقدس » كما يحدد اتجاهها ومصيرها . اما الذهب فينعكس في رمز الفاكهة . وكل هذه موضوعات رمزية ترد في صورة مشابهة في فاوست الثانية وفي سواها من اعمال جوته .

فالسر المكشوف الذي يتحدث عنه العجوز تعبير يتردد كثيرا في كتابات جوته ، فتتناوله احدى قصائده الفلسفية التي تحمل عنوان « ايريما »★ وتلخص تأملاته في الطبيعة والحياة :

عليك عندما تتأمل الطبيعة
ان تنتبه الى الواحد كما تنتبه الى الكل ،
لا شيء في الداخل ، لا شيء في الخارج .
لان ما هو في الداخل فهو كذلك في الخارج .
فضع يدك بغير ما تردد
على السر المقدس المكشوف
ابتهجوا بالمظهر الحق
وباللعب الجاد ،
ما من حي في واحد
انه على الدوام كثير .

كما يقول في الديوان الشرقي على لسان حافظ :

سر مكشوف

سموك ، يا حافظ المقدس
اللسان الصوفي ،
ولم يعرفوا ، وهم علماء الكلام ،
قيمة الكلمة .
انت عندهم متصوف ،
لانهم يحسبون ان الطيش عندك
ويشربون على اسمك ،
خمرهم العكرة .
لكنك متصوف نقي
لانهم لا يفهمونك ،
انت الانسان المبارك
وان لم تكن تقيا !
وذلك ما لا يريدون
ان يعترفوا لك به .

ويقول في « الحكم والتأملات » : ان من تبدأ الطبيعة في اماطة اللثام عن سرها الظاهر المكشوف له ، يحس بشوق غلاب الى الفن انبل مفسريها . »

ان مطالعة وجه الله ورؤية ما وراء العالم في كل ما هو ارضي مباشر هو فعل صوفي او سر مكشوف لا يتفتح الا بالدهشة . فالدهشة هي الطريق الوحيد الذي يمكننا من ان نرى الوجود الحق في ما يعطى لنا كل يوم ، وان نعرف السر الذي يربط الشيء الصغير بالروح الكوني الكبير . والدهشة★ التي تهز كياننا نوع من الارتعاش ، يعبر عنهفاوست في الجزء الثاني ممن المأساة فيقرل :

على انني لا افتش عن نجاتي في الجمود
الارتعاش هو خير ما في وجود الانسان
(فاوست الثانية ـ البيت ٦٢٧٢)

★ راجع اعمال جوته ، طبعة هالمبورج ، المجلد الاول ، ص ٣٥٨ .

★ راجع لكاتب السطور مقالا عن « الدهشة اصل الفلسفة » ، مجلة « المجلة » ، عدد اغسطس ١٩٦٣ ، القاهرة .

شعر

من منشورات دار الآداب

★ ★ ★

		ق.ل
● الاعاصير	للشاعر القروي	٣٥٠
● وحدي مع الايام	لفدوى طوقان	٣٠٠
● وجدتها	لفدوى طوقان	٣٠٠
● اعطنا حبا	لفدوى طوقان	٢٥٠
● مدينة بلا قلب	لاحمد ع. حجازي	٢٠٠
● عيناك مهرجان	لشفيق معلوف	٢٠٠
● ابيات ريفية	عبد الباسط الصوفي	٣٠٠
● ابيات مؤرقة	لسليمان العيسى	٣٠٠
● في شمسي دوار	فواز عيد	٢٠٠
● الفجرآت يا عراق	هلال ناجي	٢٠٠
● المشانق والسلام	عدنان الراوي	٢٠٠
● حداء وغناء	خالد الشواف	٢٠٠

ولكن امثال هذه الصور الرمزية تتكشف فتصبح استعارات ، كما نرى في الحية عندما تتكور على نفسها ، وهي استعارة قديمة تدل على الصحة والحياة والخلود . والاستعارة ظاهرة كذلك في وصف الملوك الثلاثة الذين تقابل معادنهم (الذهب والفضة والمعدن الخام) الحكمة والمظهر والسلطان ، أو العقل والفتنة والقوة ، أو المعرفة والشعور والارادة ، كما هي ظاهرة في العلاقة بين مملكة الحسيات (التي تمثلها الحية الخضراء) وبين مملكة الحرية او مملكة ما فوق المحسوس (التي تمثلها الزنبقة) .

ولكننا نخطىء اذا تصورنا ان بقية الصور التي تتتابع في كثرة مذهلة يمكن ان تحدد دلالاتها هذا التحديد . فلو فعلنا هذا لكنا كمن يحاول معرفة السر بالعقل والاستدلال ، بينما الامر فيه متروك للشعور والوجدان . ونخطىء كذلك لو حاولنا ان نعطي بعض الجمل التي تجري مجرى الحكم دلالات ثابتة . فحين يسأل الملك : « اي شيء اروع من الذهب ؟ » فتجيب الحية : « النور » ثم يعود فيسألها : « واي شيء اعذب من النور ؟ » فتجيب : « الحديث » ، أو حين يسألها العجوز : « علام صممت ؟ فتجيبه قائلة : « على ان اضحي بنفسي قبل ان يضحي بي » ، او حين يقول العجوز ذو المصباح للفارس الجميل : « ان الحب لا يتسلط ، ولكن يربي ، وهذا أكثر . » سنجد انفسنا في حيرة من هذه العبارات جميعا ، فلا ندري كيف نفسر علاقتها بالحكاية في مجموعها . ان الحديث الذي تشير اليه الحية هو هنا نوع من التفاهم والتجاوب بين السائل والمجيب ، ولون من الالتقاء بين من يتحدث ومن يستمع اليه. انه يصل الى ذروته في الحب ، وهذا يؤدي الى التضحية والفداء . وتضحية الحية بنفسها هي التي تنوج الحكاية ، وتخلق روح التجانس التي ستغرف على الجميع ، وكذلك لا يخرج الضد الا عن ضده ، ولا تولد السعادة الا من اعماق الشقاء .

مزيج عجيب من جميل ونادر ومضحك ومدهش تروى كلها في مستوى واحد وعلى وتيرة واحدة . فالمضحك لا يضحكنا بالمعنى المألوف لنا في حياتنا اليومية ، والمدهش لا يثير دهشتنا ، وكل ما هو جميل او نادر فهو شيء نتوقعه سلفا في عالم الاحلام . هنا ينطلق الخيال فيلعب في حرية وبراءة ، وينشر صورة سحرية وراء اخرى ، خالصا من قيود الواقع وقوانينه (وان لم يخلص من قوانين الافكار) حتى يشبه ان يكون لحنا موسيقيا او تأليفا غريبا من يد رسامي الرموز والاحلام . هي اذن مملكة احلام ، وهي في الوقت نفسه صورة عقلية عالية لا تعليم فيها ولا عظات ، بل لعب خالص من كل هدف ، يحاول ان يربط الكائن المحدود بالعالم غير المحدود .

لقد نسجت الحكاية من رموز عاشت في ضمير الانسانية من الاف السنين ، ورددتها الشعوب في اساطيرها وحكاياتها وخرافاتها واشعارها وفنون سحرها . فالحية والنهر واللهب والذهب ... الخ تنبع من هذا النبع الحي القديم . ولكن الحكاية تحاول الى جانب ذلك ان تجيب على السؤال الخالد عن جوهر الانسان ومصيره ، وعن موقفه من هذا العالم وواجبه فيه . فالانسان خالق الحضارة هو الكائن الوسط الذي يقف بين شاطئين ، ويعيش بين طرفين ، ويتأرجح بين لامتناهيين (كما عرف اليونان وكما قال باسكال في عبارته المشهورة) ، بين الهوة والقمة ، والحيوان والاله ، والضعة والكمال . والحكمة كلها في اقامة الجسر الذي يربط بين شاطئي نهر الحياة : بين الطبيعة والفن ، والارض والسماء ، والليل والنهار ، والواقع والمثال . ولكنه لن يقيم هذا الجسر حتى يدفع الثمن من حياته ودمه . ولقد ضربت الحية له المثل الرائع الاليم ، فعرفت « حين آن الاوان » كيف تضحي بنفسها في سبيل غيرها ، وتبني من جسدها تلك الدائرة المسحورة التي تضم السعادة والتجانس والكمال ..

عبدالغفار مكاوي

صدر حديثا

عاشق من افريقيا

مجموعة شعرية جديدة يعود بها الشاعر المبدع

محمد الفيتوري

الى قرائه الكثيرين بعد غياب بضعة اعوام

نكهة جديدة في اسلوب متطور

الثمن ليرتان لبنانيتان

منشورات دار الآداب